من روائع
الأدب الأوروبي

مكتبة | 191

ستيفان زفايغ

التباس الأحاسيس

رواية



ستيفان زفايغ

التباس الأحاسيس

ستيفان زفايغ

التباس الأحاسيس

تَدَاوِين شخصية للبروفيسور «د» دو «ر»

رواية

ترجمة: محمد بنعبود



العنوان الأصلي للرواية:

Stefan Zweig

Verwirrung der Gefühle

الكتاب

التباس الأحاسيس

تأليف

ستيفان زفايغ

ترجمة

محمد بنعبود

الطبعة

الأولى، 2017

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-864-0

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

راودَتْ تلامذتي وزملائي في الكلّية فكرة طريفة، وها هم أولاء يأتونني بالنّسخة الأولى من كِتاب التّكريم الذي خصّني به فقهاءُ اللُّغة هؤلاء، بمناسبة الذّكرى السّتين لعيد ميلادي والثّلاثين لحصولي على رتبة الأستاذية. كان الكتاب نفيساً في تجليده ومحمولاً إليّ بطريقة احتفالية. لا يغيب فيه أدنى مقال من مقالاتي ولا أقلُّ خطبة من خُطبي الرّسمية، ولا يوجد تقرير تافه، نُشر فيما لا أدري من الحوليات العلمية، لم تنتشله سيرة الحياة المثمرة هذه من جَدَثِ الأوراق المهملة. كلّ مساري موجود ها هنا، مُعاد بناؤُه إلى حدود يومنا هذا، بوضوح مثاليّ، درجة بعد درجة، كمثل سُلّم كُنس بعناية فائقة. سأكون جاحداً، بحقّ، إن لم يُسعدني هذا الاهتمام المؤثّر. فما كنت اعتقدت أنا نفسي أنّه قد انمحى من حياتي وضاع، يعود إلى الوجود، في هذه اللّوحة، معروضاً بتنظيم وبمنهجية. أجل، عليّ أن أعترف أنّ الرّجل الشّيخ الذي

صرته الآن قد تأمّل هذه الأوراق بنفس الزّهو الذي كان بدا قديماً على التّلميذ الذي كنته وهو يستمع إلى شهادة أساتذته التي نصّت، لأوّل مرّة، على أهليته لدراسة العلوم وأنّ له إرادةً للقيام بذلك.

غير أنّني، بعد ما نظرت في هذه الصّفحات المئتين الصّقيلة وتأمّلت مليّاً هذا الضّرب من المرآة الثّقافية الخاصّة بي، وجدتُني مُضطرّاً للتبسُّم. هل توجد حياتي حقّاً بين دفّتي هذا الكتاب؟ هل هي تنمو بالفعل في شكل لولبيّ دلالةً على تطوّر يدعو للابتهاج، منذ اللّحظة الأولى وإلى غاية اليوم، كما يرسمها كاتب السّيرة اعتماداً على الوثائق؟ لقد حصل لديّ نفس الانطباع الذي سبق لي أن استشعرته عندما سمعت صوتي لأوّل مرّة على الفونوغراف: لم أتعرّف إليه البتّة في البداية؛ هو بالتأكيد صوتي، لكنّه ليس إلّا الصّوت الذي يسمعه الآخرون وليس الذي أستشعره أنا وكأنّه قادم عبر دمي وكامنٌ في حَنِيَةٍ داخلية من كياني. وهكذا لاحظت، أنا الذي سخّرت حياتي كلّها لوصف الأشخاص انطلاقاً من أعمالهم، ولصبغ البنيات الفكرية لعوالمهم بطابع الموضوعية - لاحظت، انطلاقاً من المثال الخاصّ بي أنا تحديداً، كم تبقى غيرَ قابلة للاختراق، في مصير كلّ إنسان، النّواةُ الحقيقية للكائن والخليةُ المتحرّكة التي ينبع منها كلّ تطوّر. نحن نعيش ما لا يُعدّ ولا يُحصى من الثّواني، ومع ذلك فليس منها أبداً إلّا ثانية واحدة، واحدة بعينها، تجعل كلّ عالمنا الدّاخليّ في

حالة غليان. إنّها الثّانية (تحدّث عنها ستندال) التي تُحقّق فيها الزّهرةُ الدّاخلية، وقد سُقيت بكل العُصَارات، تَجَسُّدَها فيما يُشبه إشراقة. إنّها ثانية سحرية، شبيهة بتلك التي يحصل فيها الإخصابُ. فهي -مخبوءةً مثلها، في الدّفء، في أعمق أعماق الجسد- ليست مرئية ولا ملموسة ولا قابلة للإدراك. إنها لُغز لا يُعاش إلّا مرّة واحدة، ولا يقدر أيُّ جَبرٍ ذهنيّ على حسابها، ولا كيمياء للاستشعار قادرة على تخمينها، ولا يُدركها الحدسُ الذي لنا عن ذواتنا إلّا في النّادر.

يجهل هذا الكتاب كلّ شيء عن سرّ مقدمي إلى الحياة الفكرية، لذلك وجدتني مُضطرّاً للتبسُّم. كل شيء فيه صحيح، ولا ينقصه إلّا الأساسيّ. هو يصفني لكن دون أن يقدر على النّفاذ إلى كياني، ويتحدّث عنّي دون أن يكشف من أكون. يحوي ملحقُه المُعدّ بعناية فائقة قائمةً بمئتَي اسم، ولا يغيب فيها إلّا الذي انطلق منه كلّ شغفي الإبداعيّ، أقصد اسم الرّجل الذي قرّر مصيري ويضطرّني الآن، بقوّة مضاعفة، إلى الحديث عن شبابي. تناول هذا الكتابُ الجميعَ إلّا الذي علّمني الكلام وأجّج بنَفَسه لغتي؛ شعرت بنفسي فجأة مُتّهماً بتستّرٍ جبان، فأنا قد رسمت، طوال حياتي، بورتريهات إنسانية، ومن عمق القرون أيقظت وجوهاً كي أجعلها ملموسةً لدى قرّاء وقتنا الرّاهن، ولم أفكّر قطّ، تحديداً، في الذي كان حاضراً فيّ على الدّوام. ثمّ إنّني أُريد أن أجعله -هذا الشّبح العزيز- يشرب من دمي الخاصّ بي، كما كان يحصل أيّام

هوميروس الملحمية، حتى يتحدّث إليّ من جديد، وحتى يكون، هو الذي أدركه العمر منذ زمن طويل، بالقرب منّي، أنّا الذي صرت أشِيخُ. أُريد أن أُضيف وُرَيقَة سرّية للأوراق المنشورة، أن أُضيف شهادة عاطفية إلى الكتاب العالِمِ، وأن أحكي لنفسي، حبّاً فيه، حقيقة مرحلة شبابي.

تصفّحت ثانية، قبل البدء، هذا الكتابَ الذي يدّعي تمثيلَه لحياتي، فوجدتُني من جديد مضطرّاً للتبسُّم؛ إذْ كيف يُريدون معرفة النّواة الحقيقية لكينونتي، هم الذين اختاروا انطلاقة خاطئة؟ خطوتهم الأولى تقود حتماً إلى الخطأ! فها هو ذا رفيقُ دراسة، يشغل اليوم مثلي مهمّة مستشار فخري، يُريد ليَ الخيرَ فيتخيّل بمجّانية أنّ شغفاً بالآداب كان يُمّيزني سلفاً، في الثّانوية، عن باقي «التّلاميذ». إنّ لك لذاكرة سيئة يا عزيزي المستشار الفخري! فالعلوم الإنسانية الكلاسيكية، في مذهبي، تُمثّل عبودية لا يُمكن تحمّلها إلّا بصعوبة، مع صرِّ الأسنانِ والإِزْبَاد. وتحديداً لأنّني ابن ناظر مدرسة، كنت أنظر، في هذه المدينة الصّغيرة من شمال ألمانيا، إلى الثّقافة التي تُعلَّم حتّى على مائدة الطّعام وفي قاعة الاستقبال، على أنّها مهنةٌ لتحصيل لقمة العيش، فكرهت منذ الطّفولة كلّ فقهٍ للّغة. إنّ الطّبيعة، وفقاً لمهمّتها الباطنية المتمثّلة في الحفاظ على النّفَس الإبداعيّ، دائماً ما تَسِمُ الطّفلَ بكراهيةِ أذواقِ الأبوين واحتقارها. فهي تُقيم، في بداية الأمر، تبايناً بين أشخاص

من نفس الأصل، وليس إلّا بعد تحوّلٍ مُضنٍ ومُثمر تسمح للخلَف بولوج درب السّلف. كان يكفي أن يُضفي والدي على العلم طابع القداسة كي لا ترى فيه شخصيتي الوليدة غير مهارات عديمة الفائدة؛ ذلك أنّه كان يُعلي من شأن الكلاسيكيات وكأنّها نماذج للاحتذاء، في حين كانت تبدو لي أنا ذاتَ طابع تربويّ، وإذاً فهي ممجوجة. بقدر ما كنت مُحاطاً بالكتب من كلّ جانب، كنت أكرهها. وكان أبي يدفعني نحو أمورِ الفكرِ، فأتمرّد ضدّ كلّ شكل من أشكال الثّقافة المنقولة كتابةً. ليس مُدهشاً إذاً أن أكون قد عانيت حتّى أدركت مستوى البكالوريا، وأنّني رفضت بعد ذلك، بحمية، متابعةَ الدّراسة. كانت تحدوني رغبة في أن أصير ضابطاً أو بحّاراً أو مهندساً. والحقّ أنّه لم يكن بإمكان أيّ نوع من أنواع الدّراسة النّظامية المحدّدة أن يقودني نحو هذه المهن، وحدها كراهيتي للأوراق وللطّابع التربوي للعلم جعلتني أُفضّل نشاطاً تطبيقياً على مهنة أستاذ. غير أنّ والدي، بإجلاله المتعصّب لكلّ ما يمتّ للجامعة بصلة، ألحّ على إرادته في أن أُتابع دروس إحدى الكلّيات، ولم أستطع الحصولَ منه إلّا على تنازل وحيد: بدل فقه اللّغة الكلاسيكي، سُمح لي أن أختار دراسة اللّغة الإنجليزية (وهو حلّ غير أصيل، قبلته في آخر المطاف مع الفكرة المُسبقة الخفية بأن أستطيع بعد ذلك بسهولة، بفضل معارف هذه اللّغة البحرية، أن ألج مشوار البحّار الذي كنت شديد التّوق إليه).

لا شيءَ إذاً في هذه السيرة الذاتية أشدُّ خطأً من الجزم، عن حسن نية، بأنّني قد اكتسبت خلال الثّلاثة أشهر الأولى التي قضيتها في برلين، بفضل أساتذة مَهرَة، مبادئَ فقه اللّغة. فالحقيقة أنّ شغفي بالحرّية كان يتأجّج فيّ بقوّة فأبعدني حينها عن كلّ الدّروس وعن كلّ الأساتذة المحاضرين. وخلال مروري الأوّل والخاطف بمدرّج الكلّية، أصابني الجوّ الفاسد والعرض المتفاصح والرّتيب، في نفس الآن، كمثل خطبة قسّ، بضرب من التّعب اضطررت معه لبذل جهد كي لا أنام في مقعدي. هنا أيضاً توجد تلك المدرسة التي كنت خِلتُ أنّني أفلحت في النّجاة منها. إنّني أعثر هنا ثانية على فصل الدّراسة، بكرسيٍّ أستاذية مرتفع، وبصبيانيات منسوجة من تفاهات. حصل لديّ الانطباع، على الرغم منّي، أنّ رملاً هو ما كان يجري خارج الشفتين اللتين لا تكادان تنفرجان لـ«المستشار الفخريّ» المحاضر ها هنا، لفرط ما كانت باليةً ورتيبةً تلك الكلماتُ المكرورةُ التي يتألّف منها درس تتبدّد كلماته في جوّ ثقيل. تجدّدَ لدي الشك الذي كان قد ساورني من قبل، زمن المدرسة، بأنني قد أكون وقعت على ثلّاجة لجثث فكرية، حيث تصطخب أيادٍ لا مبالية حول أموات، مفكِّكةً جثثهم؛ تجدّدَ لدي هذا الشك بشكل قبيح في مُختبر الكلام المتكلِّف هذا والذي أضحى منذ زمن طويل فاقداً لكلّ قيمة. وقد اكتست لديّ غريزةُ الدّفاع هذه كثافةً كبيرة حتّى أنّني ما أن انتهت ساعة الدّرس التي تحمّلتها بعناء ما بعده

عناء، حتّى خرجت إلى شوارع المدينة، شوارع مدينة برلين المنتمية إلى ذلك الزّمن، والتي كانت تجعلُ كهرباءَها -وقد تفاجأَت هي نفسها بما حقّقته من تطوّر، مُجتاحة برجولة سرعان ما تأكّدت- تنبعث من كلّ الأحجار ومن كلّ الأزقّة، فارضة بطريقة لا رادّ لها على كلّ فرد إيقاعَها الذي يجعل نبضات القلب تتسارع؛ وهو إيقاع كان يُشابه تماماً، بحماسته المتوحّشة، ثمالة رجولتي أنا أيضاً، والتي كنت قد وعيت بها لتوّي. كنّا أنا وبرلين، وقد خرجنا فجأة من نمط حياة بورجوازيّ صغيرٍ وبروتستانتي، مُنظّمٍ ومحدودٍ؛ كنّا معاً مُنداحين قبل الأوان في شغب جديد بقوّته وبما يحبل به من إمكانيات؛ معاً، المدينة والفتى الذي كنته، منطلقَين مغامرَين، كنّا نزأر باصطخاب وبلهفة كمثل مولّد كهربائيّ. لم يسبق لي قطّ أن فهمت برلين وأحببتها كما فعلت في هذه المرحلة، لأنّ كلّ خلية من كياني -تماماً كما هي الحال في هذا الشّعاع العسلي الإنساني المترقرق- كانت تصبو إلى تمدّد مُفاجئ. ثمّ، في أيّ مكان آخر كان بإمكان لهفةِ شبابٍ مُتّقدٍ أن تُعرب عن نفسها أحسن من الحضن النّابض والحارق لهذه المرأة العملاقة؛ أحسنَ من هذه المدينة الملتاعة والمترعة قوّةً؟ ملكَت شغاف القلب فجأة فغطستُ فيها ونزلت إلى عمق شرايينها، فعبَرَ فضولي سريعاً كلَّ جسدها الصخري والدافئ مع ذلك. كنت أهيم في شوارعها منذ طلوع النّهار وإلى أن يُسدل اللّيل أستاره، فأمضي إلى أن أُدرك البحيرات،

مُستكشفاً ما لا يزال خفياً فيها. إنّ الحماسة التي كنت أسلّم بها نفسي لمغامرات هذا الوجود الجديد، باحثاً دوماً عن الأحاسيس الجديدة، بدل أن أهتمّ بدراستي، كانت حقّاً حماسة المأخوذ المفتون. لكنّني كنت أستجيب، في هذا الاندفاع، إلى خصّيصة في طبعي، وهي أنّني منذ طفولتي كنت أرفض قطعاً كلّ ما ليست له صلةٌ مباشرة بالشيء الذي ينكبّ عليه اهتمامي. كان نشاطي، على الدّوام، وفي كلّ مكان، يتأجّج وفق اتّجاه واحد، ولا أزال حتى اليوم، أثناء انكبابي على ما أقوم به، أعضّ بنواجذي بعامّة على مشكل واحد، بهمّة، حتى أنّني لا أتركه إلّا بعد أن أشعر في فمي بأشلائه الأخيرة، وبما تبقّى من نُخاعه.

كان الإحساس بالحرّية، إذاً، في مدينة برلين هذه، قد أضحى عندي ثمالةً هي من القوّة بحيث ما كنت عدت أتحمّل الانعزالَ المؤقّت أثناء حضور دروس جامعية في الكلّية، ولا حتّى فتحَ بابِ غرفتي الخاصّة بي. كلّ شيء لا يحمل لي مغامرة كان يبدو لي مضيعة للوقت؛ فامتطى الفتى الإقليمي المتحرِّر حديثاً من شكيمة الإعدادية، والذي لم يكن بعد غَيرَ غِرٍّ صغير، جيادَه العالية حتّى يبدو كامل الرّجولة. كنت أرتاد جمعية للطّلبة، ساعياً أن أكتسب بطرُقي (الخجولة في الحقيقة) سلوكاً ما من الطّلبة الرّاضين عن أنفسهم والحاملين لوجوه ذات ندوب كأنّهم في مشرحة. وفيما لا يزيد عن أسبوع من المحاولة، صرت ألعب دور متبجّح المدينة الصّغيرة وألمانيا

الكبيرة[1] تعلّمت بسرعة مدهشة، كمثل الجنديّ المَجِيد[2]، حالاتِ الاعتزاز بالنّفس لدى روّاد المقاهي الأساسيين وحالات خوَرِهم. وقد شملَت مرحلة الرّجولة هذه، بطبيعة الحال، النّساء، أو «الإناث» كما كنّا نقول بوقاحتنا الطّلابية. وقد صادف في هذا الجانب أنّني كنت، تحديداً، فتىً وسيماً، فارع القامة ورشيقاً لا يزال لفحُ شمسِ البحر على وجنتَيّ، مرناً وسديداً في كلّ الحركات التي أوتيها، فكانت ليّ الحظوة أمام «الذين يرتدون الملابس القطنية المنقّطة» هؤلاء، المتقعين وذوي البشرة الجافّة كمثل سمك الرّنكة المعروض على موائد البيع، والذين كانوا ينخرطون مثلنا في حملات، كلّ يوم أحد، بحثاً عن غنائم في قاعات رقص هلينسي وهندكيله[3] (اللّذين كانا لا يزالان يقعان، في ذلك الزّمن، خارج التجمّع السكني). تارة أسوق إلى غرفتي خادمة في ميكلومبورغ، شقراء كسنابل القمح، جلدها أبيض كالحليب،

(1) تلميح إلى الحركة البانجرمانية التي كانت تستهدف توحيد الشّعوب ذات الأصول الجرمانية تحت راية دولة واحدة، وبخاصة النّمساوية والسّوديتية (نسبة إلى منطقة السّوديت التي كانت تشكّل جزءاً من دولة تشيكوسلوفاكيا سابقاً).

(2) واردة في النّص الأصلي بالصّيغة اللاّتينية Miles gloriosus وقد قصدَ بها زفايغ Le soldat fanfaron (الجندي المتبجّح)، إشارة منه إلى ملهاة تحمل نفس العنوان للشّاعر اللاتيني بلوت، المتوفّى سنة 184 قبل الميلاد.

(3) Halensee وHundekehle، حيان في مدينة برلين. -المترجم-

لا تزال مُثارة بالرّقص، مُستغلّاً اللّحظات القصيرة التي تفصلها عن نهاية يوم خروجها، وتارة آتي بيهودية صغيرة من بوزن[1]، عصبيةً وحركيةً، تبيع جوارب النّساء عند تييتز. إنّها غنائم تُحصّل بسرعة، في الغالب الأعمّ، وتُترك بسرعة أيضاً للرّفاق. لكن في هذه السّهولة في الحصول على الغنائم، كان يوجد بالنّسبة إلي -أنا الذي لم أكن بالأمس سوى تلميذِ إعداديةٍ خوّاف- جديدٌ يُسكرني. كانت هذه الانتصارات السّهلة تُسَعّر جرأتي، وبالتّدريج لم أعد أَعُدّ الشّارع سوى ميدان للصّيد من خلال هذه المغامرات المتروكة كلّية للمصادفة والتي لم تكن عندي إلّا ضرباً من الرياضة. وصلت ذات يوم، مُصادفة، أثناء تعقّبي لفتاة حسناء، إلى «أنتر دين ليندن»[2]، وإذاً قبالة الجامعة، فضحكت على الرغم مني، مُفكّراً في الوقت الطّويل الذي مضى دون أن أكون قد عبَرتُ عتبتها المحترمة قطّ، فدخلتها تحدّياً، برفقة صديق من صنفي. ما كدنا ندفع الباب حتّى رأينا (في مشهد لا يُصَدّق مظهرُهُ المثير للسّخرية) مئةً وخمسين ظهراً منحنيةً على المقاعد، كمثل كتَبةٍ، بادٍ عليهم أنّهم يُضيفون أدعيتهم إلى تلك التي كانت تُرتّلها لحية بيضاء، فأغلَقتُ الباب فوراً تاركاً جدول

(1) بوزن (Posen) اسم المدينة التي تحمل اليوم اسم بوزنان (Posnan) والمنتمية إلى دولة بولونيا. أمّا تييتز (Tietz) فهو اسم أحد المتاجر الكبرى في برلين.

(2) شارع برلين الرئيس، ومعناه تحت شجر الزّيزفزون.

هذه الخطبة الحزينة يجري على أكتاف هؤلاء الطّلبة المجدّين، والتحقت بفخر، برفقة رفيقي، بالممرّ المشمس. وكانت تأتي عليّ لحظات يبدو لي فيها أنّه لا يوجد شابّ في الدّنيا يُبدّد وقته بطريقة غبية كما كنت أفعل أنا خلال هذه الأشهر. لم أقرأ كتاباً واحداً، وأنا على يقين من أنّني لم أُحصّل جملة معقولة واحدة ولا نطقت بمثلها ولا تمثّلت أدنى فكرة حقيقية. كنت أتجنّب بالغريزة كلّ تجمّع ثقافيّ، مُؤمّلاً أن أشعر بقوّة، في جسدي الذي استوى، بطعمِ كلِّ جديدٍ وباللذات التي كانت محظورة علي حتّى تلك اللحظة. من الممكن أن يكون هذا الضّرب من السُّكر بنُسغ الذّات ومن إلحاق الأذى بالنّفس بإضاعة الوقت، يُشكّل، في اعتبارٍ مُعيّنٍ، مُتطلّباتِ شبابٍ فوّارٍ، متروك فجأة لنفسه، غير أنّ الحماسة الخاصّة التي كنت آخذ بها الأمور، كانت قد وسَمَتْ هذا النّوع من الكسل القبيح بخطورة فائقة، ولقد كان من المحتمل جدّاً أن أسقط كلّية في الخوَر أو أن أستطيب الخدَر وأستكين له لو أنّ مُصادفة لم تُمسك بي فجأة واقفاً على جسر السقوط الداخلي.

تجسّدت هذه المصادفة (التي أصفها اليوم، عرفاناً بالجميل، بأنّها سعيدة) في أنّ والدي استُدعي على حين غرّة إلى برلين للمشاركة، خلال يوم واحد، في مؤتمر للنُّظّار أُقيم في الوزارة. وامتثالاً لدوره البيداغوجي، اهتبلَ الفرصة ليرى ما أقوم به دون أن يُخطرني بمَقدَمه، حتى يُفاجئني هكذا في لحظة لم أكن أنتظره فيها على الإطلاق. وقد أفلح تماماً هذا

الهجوم عن طريق المفاجأة؛ كنت في ذلك المساء، كما يحدث في غالبية الأوقات، في غرفة الطّالب الرّديئة في شمال المدينة (كان مدخلها يقع في مطبخ صاحبة المنزل، خلف ستارة) مصحوباً بفتاة في زيارة حميمة للغاية، فسمعت طرقاً على الباب. وبما أنّني افترضت أنّ الطّارق قد يكون أحد الرّفاق، فقد نهرته بمزاج عكر: «لست موجوداً». بعد زمن قليل تجدّدت الطّرقات، مرّة ومرّتين، ثمّ، بنفاد صبر ظاهر، مرّة ثالثة. ارتديت سروالي غاضباً كي أُعيد بلا هوادة هذا المزعجَ المتعجّل للتجوّل في الشوارع. وهكذا فتحت الباب بعنف، قميصي مفتوح إلى النّصف وحمّالتا السّروال متدلّيتان، حافي القدمين. على الفور، كما لو كنت قد تلقّيت لكمة على صُدغي، تعرّفت في عتمة المدخل إلى شبح والدي. لم أكن أُميّز من وجهه في الظّلمة غير زجاج نظّارته الذي تنعكس عليه التماعات الضّوء، لكن رُؤية هذا الطّيف كانت كافية كي ينحبس السّبّ الذي كنت على وشك لفظه، كمثل حسكة، في حلقومي الذي ضاق. بقيت لحظة منبهراً. ثمّ (يا لها من ثانية بشعة!) وجدتُني مُضطرّاً لرجائه بمذلّة أن ينتظر دقائق في المطبخ «حتى أرتّب غرفتي». لم أكن أرى وجهه، كما قلت قبل قليل، لكنّني أحسست أنّه قد فهم. أحسست بذلك من صمته ومن الطّريقة المتضايقة التي ولج بها المطبخ، خلف السّتارة، دون أن يمدّ لي كفّه اشمئزازاً. وثَمَّ، أمام الفرن الذي تفوح منه رائحة القهوة المسخّنة ونكهةُ حساء اللّفت،

وجب على الرّجل الشّيخ أن ينتظر، واقفاً عشرَ دقائق؛ عشر دقائق مهينةٌ جدّاً لي وله، سحبتُ خلالها الفتاةَ من الفراش وجعلتُها ترتدي ملابسها بسرعة وقدتُها خارجَ الشّقة، مارّة أمام والدي الذي يستمع، على الرّغم منه، إلى كلّ شيء. سمع وجوباً شخصاً يمشي، وسمع، في اللحظة التي اختفت فيها مُسرعة، ثنياتِ السّتارة تُفرقع بفعل التّيار الهوائيّ. ولم يكن بإمكاني بعدُ أن أُخرج الرّجل الشّيخ من مخبئه المذلّ، إذْ كان عليّ قبل ذلك أن أُصلح من الفوضى الظّاهرة لسريري. عند ذلك فقط (لم يسبق لي أن شعرت قطّ طوال حياتي بهذا القدر من الخجل) ذهبت للبحث عنه.

عرفَ والدي كيف يتحكّم في نفسه، خلال هذه اللّحظة المؤسفة، وأنا لا أزال حتى اليوم أشكره على ذلك من صميم قلبي، فصرت بعد ذلك، منذ زمن طويل، كلّما فكّرت فيه أرفض لنفسي، بتصميم، أن أستدعيه في ذهني وفقَ البعدِ الذي كان لدى التّلميذ الذي كنته، والذي كان يلتذّ بأن لا يرى فيه، باستخفاف، سوى ماكينة للتّصحيح ومتحذلقٍ مُتعلّقٍ بالتّفاصيل، كَلِفٍ كلَّ الوقت بإنزال العقاب. أنا اليوم، على العكس من ذلك، أستدعي صورته التي كانت له في هذه اللحظة الإنسانية التي تحكّم فيها الشيخ بأعصابه رغم اشمئزازه، وهو يلج في أثري هذه الغرفةَ الثّقيلَ جوُّها. كان يُمسك في يده بقبّعته وقفّازيه، فأراد لا إرادياً أن يتخلّص منهما بوضعهما في مكان ما، لكنّه سرعان ما أبدى شعوراً

بالاشمئزاز، كما لو كان يرفض أن يلمس أيَّ جزء من كيانه هذه «القذارة». قدّمت له كرسياً، فلم يُجب، مُبعداً بإشارةِ رفضٍ منه كلَّ تقاربٍ مع أشياء هذا المكان.

أخيراً، وبعد أن ظلّ واقفاً للحظات، بارداً ومُولٍّ نظرَه إلى الجهة المقابلة، خلع نظّارته وفركها بإصرار، ما يُشكلّ عنده، أنا على علم بذلك، علامةَ انزعاج؛ كما لم تغب عنّي أيضاً دلالةُ تمرير ظهرِ كفّه على عينيه. كان يشعر بالخجل أمامي، وكنت أشعر أنا أيضاً بالخجل أمامه. لم يعثر أيٌّ منّا على كلمة يقولها لصاحبه. خشيت في سرّي أن يشرع في إحدى مواعظه، بخطبة ذات جُملٍ منمّقة، وبهذا النّبر الأغنّ الذي كنت أكرهه وأسخر منه منذ ولوجي الثّانوية. غير أنّ الشّيخ -وأنا لا أزال ممتنّاً له بذلك إلى يومنا هذا- ظلّ صامتاً مُتحاشياً النّظر في وجهي. ذهب أخيراً في اتّجاه الرّفوف المهتزّة التي تستقرّ عليها كتبي الدّراسية. فتحها، فحصل له اليقين من أوّل نظرة، دون شكّ، بأنّني لم يسبق لي أن لمستها مُنتبهاً إلى أنّ غالبيتَها ما زالت صفحاتُها مُلتصقة ببعضها. «كرّاسات دروسك!» كان هذا الأمرُ هو أوّلَ ما تلفّظ به. مددتها له مُرتعشاً لأنّني كنت على بيّنة من أنّ رؤوس الأقلام المأخوذة بطريقة مختصرة، لا تُماثل سوى ساعة درس واحدة. نظر في الصّفحتين وقلَّبَهما بسرعة ودون أدنى علامة غضب ثمّ وضع الكرّاسات على المائدة، وأمسك بمقعد وجلس ناظراً في وجهي بقسوة، لكن دون أن يصدر عنه أيّ

مأخذ، وسألني: «حسنٌ! ماذا ترى في هذا كلّه؟ ما ستكون نتائجُه؟».

سمّرني في الأرض هذا السّؤالُ المطروح بهدوء. كان كلّ جزء منّي مهيّأً للمقاومة؛ فلو كان عنّفني للعبت دور المتبجّح، ولو كان التجأ إلى المواعظ البكائية لكنت استهزأت به، غير أنّ السّؤال الموضوعيَّ كسر شوكة كبريائي؛ كانت حِدّته تقتضي حدّة مماثلة، وكان هدوؤه المترع ضيقاً يستدعي الاحترام باستقبال سؤاله بطيب خاطر. إنّني لا أكاد أتذكّر ما كنت أجبت به، كما أنّ الحوار الذي أعقب السّؤال يَستَتِرُ الآن أمام قلمي؛ فنحن حين نحكي عن ارتجاجات تحصل لنا فجأة، وعن الكيفية التي يُكبّلنا بها التّأثّر على حين غفلة، يتسربل كلامُنا في نبر عاطفيّ. هناك كلمات مُعيّنة لا تتلبّس حقيقةً عميقةً إلّا مرّة واحدة، عندما يُتلفّظُ بها أمام أربعِ عيون وعندما تنبثق بعفوية من قلاقل الأحاسيس غير المنتظرة. كان ذلك هو الحوار الحقيقي الوحيد الذي سبق لي أن أجريته مع والدي، فلم أتردّد في أن أُبدِيَ مذلّتي طوعاً، تاركاً له الأمر في أخذ القرار الذي يراه مناسباً. لكنّه اكتفى بنُصحِي أن أُغادر برلين وأن أذهب للدّراسة، خلال نصف السّنة الموالي، في جامعة صغيرة. قال وكأنّه يروم شَدَّ أزرِي أنّه متأكّد أنّني من الآن فصاعداً سأستدرك بشجاعة الزّمنَ الضّائع. لقد بلبلتني ثقته، فأحسست، في تلك اللّحظة، بالخطأ الفادح الذي اقترفته طوال شبابي في حقّ هذا الشّيخ المُتمَترِس خلف

مظهر شكليّ مثلّج. وجدتُني مُضطرّاً لعضّ شفتي حتّى أمنع دموعي من أن تسيل حارِقَةً من عيني. لكنّه هو أيضاً كان يعتورِه، دون شكّ، إحساسٌ مماثل، لأنّه مدّ كفّه المرتعشة نحوي فجأة، وسارع بالخروج. لم أجرؤ على السّير في أثره، فبقيت ثمّة، مُضطرباً ومبلبلاً، ومسحت بمنديلٍ دمَ شفتي المنبثق، لفرط ما كنت نشبت بعمق أسناني فيها حتى أبقى متحكّماً في انفعالاتي!

كانت هذه، بالنسبة إلي، أوّلَ رجّة أتعرَّض لها وأنا في التّاسعة عشرة من عمري؛ وقد ألقَتْ أرضاً، دون كلمة عنيفة واحدة، بالقصر الورقيّ الفخم الذي بنته رغبتي في أن أبدوَ بمظهر الرّجولة وأن أُحاكي وقاحة الطّلبة وأن أُضفي عليّ ما أُجَمّل به نفسي. أحسست بطاقة قوية بفضل إرادتي التي كانت قد مُسّت في جوهرها، مُستعدّاً للتخلي عن كلّ الرغبات المتدنّية القيمة. اجتاحتني لهفةٌ أن أُجرّبَ في الحقل الفكريّ طاقتي التي كنت حتّى تلك اللحظة أُبدّدها. تملّكتني الحاجةُ الشّغوفُ للجدّية والرّزانة والانضباط والتقشُّف. في هذه الفترة من حياتي وعدتُ بقصرِ نفسي طُرّاً على الدّراسة، وكأنّني ألتزم بنذرٍ رَهبَانيٍّ، جاهلاً في الحقيقة اللّذة القصوى التي كان العلم يدّخرها لي، فلم يُخامرني شكّ أنّ في العالم الفكريّ السّامي أيضاً، تكون المغامرة والمجازفة دائماً ملك يمين الكائن المتلهّف.

كانت المدينة الإقليمية الصّغيرة التي اخترتها باتّفاق مع والدي لمتابعة دراستي خلال النّصف الثّاني من السّنة، تقع وسط ألمانيا. كانت سمعتها الجامعية تتناقض بحدّة مع التّجمع السكني المتواضع الذي يُحيط ببناءات الكلّية. لم أجد صعوبة كبرى في العثور على **لالما ماتر**(1) بعد أن غادرت المحطّة حيث تركت أمتعتي، فشعرت توّاً، وأنا في حضن البناية الشّاسعة ذات المعمار العتيق، أنّ دائرة المعارف تتشكّل هنا بسرعة أكبرَ ممّا في المحيط الجامعيّ البرلينيّ. في غضون ساعتين كنت قد أتممتُ تسجيلي واستقبلني غالبية الأساتذة. وحده مدير دراساتي، أستاذ فقه اللغة الإنجليزية، لم أستطع مقابلته فوراً، لكن قيل لي إنني سأقابله بعد الظّهر على السّاعة الرّابعة في «النّدوة»(2).

في تمام السّاعة الرّابعة (وبعد جولة سريعة عبر المدينة الصّغيرة التي بدت لي، مُقارنة ببرلين، غارقة في سُباتها) كنت في المكان المحدّد، مأخوذاً بهذه اللّهفة لأن لا أُضيعَ ساعة واحدة من وقتي، مُتحمّساً في انطلاقي لمعانقة المعارف التي

---

(1) L'Alma Mater معناها الحرفيّ هو (الأمّ المرضعة)، وهي صيغة كان يُشار بها قديماً إلى الوطن، ثمّ أصبحت كناية عن الجامعة، على سبيل الدّعابة.

(2) نشاط بيداغوجي كان في ذلك الزّمن خاصّاً بالجامعات الجرمانية، مختلفٌ عن الدّروس الجامعية يُتيح للأستاذ والطّلبة إقامة نقاشات فيما بينهم.

كنت قبل الآن قد رتّبت مع نفسي أن أتحاشاها. دلّني الحارس على باب القاعة التي تجري فيها النّدوة. طرقتُ ودخلتُ، ما دام قد بدا لي أنني سمعت صوتاً في الداخل يُجيبني.

لكنّ سمعي قد خانني لأنّ لا أحد طلبَ منّي الدّخول، وما كان النّبرُ غيرُ الواضح الذي تناهى إلى مسمعي سوى الصّوتِ المرتفع والكلامِ القويّ للبروفيسور الذي كان يُلقي خطاباً مُرتجلاً على ما يبدو، أمام دائرة مُشكّلَة ممّا يزيد قليلاً عن عشرين طالباً متكاتفين في مجموعة قريبة جدّاً منه. أردت الانسحاب دون ضجيج، مُتضايقاً من أن أكون حيث أنا دون إذن عقب الخطأ الذي أوقعني فيه سمعي، لكنّني خشيت أنّني تحديداً إن قمت بذلك أثرت الانتباه، لأنّه لا أحدَ من الحاضرين كان قد انتبه لوجودي حتّى تلك اللّحظة. بقيت بالقرب من الباب، مُستمعاً على الرغم مني إلى ما يُقال.

كان يبدو أنّ تدخّل البروفيسور أتى عقب مُناقشة أو عرض. هذا على الأقلّ ما كانت توحي به الوضعية غير الرّسمية والعفوية للبروفيسور وطَلَبته؛ فهو لم يكن يجلس بأستاذية على مقعد عن بعد، وإنّما على طاولة، ساقه مُدلّاة قليلاً، بطريقة شبه لا مُبالية، وقد تجمّع حوله الشبّان، ثابتين في وضعيات شبيهة بوضعية التّماثيل، واقعين، دون شكّ، تحت تأثير اهتمامهم المفتَتِن. من المفروض، على ما بدا، أنّهم كانوا في البداية يتحدّثون جميعاً، إلى أن جثم الأستاذ

فجأة على الطّاولة، فجلب اهتمامهم إليه بكلامه، في وضعيته العالية تلك، وكأنّه ربطهم إليه برَبقَةٍ كي يُثبّتهم في أمكنتهم، مأخوذين مفتونين. شعرت أنا نفسي، بعد بضع دقائق، وقد نسيت سلفاً الطّابع الدّخيل لوجودي ها هنا، بالقوّة السّاحرة لخطابه تفعل فعلها المغناطيسيّ، وعلى الرغم مني جعلت أقترب أكثر حتى أرى، فضلاً عن الكلام، الحركات الظاهرة الاستدارة والاتّساع ليديه اللّتين كانتا أحياناً، عندما يُصدي صوتُه القويّ، تُفرَدَان كمثل جناحين وترتفعان مُرتعشتين ثمّ تنخفضان شيئاً فشيئاً بإيقاع موسيقي مصحوبتين بالحركة المعتدلة التي عادة ما تصدر عن رئيس جوقة موسيقية. وكان خطابه يزداد حماسة باستمرار، بينما كان هذا الرّجل المجنّح، وكأنّه على صهوة جواد مُخيِّلٍ، يرتفع بتوقيع على الطّاولة الصّلبة ويُتابع لاهثاً النّمو الحماسي لأفكاره التي تتخلّلها صور باهرة. لم يسبق لي قطّ أن سمعت كائناً بشرياً يتحدّث بكلّ هذا الحماس وبهذه الطريقة الآسرة حقّاً. لأولّ مرّة وجدتُني أحضر ما كان الرّومان يُسمّونه Raptus، أيْ تحليق الفكر فوق نفسه. لم يكن يتحدّث إلى نفسه ولا إلى الآخرين، هذا الرّجلُ ذو الشّفة الملتهبة التي ينبعث منها ما يُشبه النّار الدّاخلية للكائن البشريّ.

لم يسبق لي أن شاهدت أمراً مثل هذا؛ خطابٌ كلّه نشوة، عرضٌ مفتون وكأنّه ظاهرة قاعِدِية، وما كان يُوجد فيه من غيرِ المنتظرِ أرغمني فجأة على التقدُّم إلى الأمام أكثر.

دون أن أعي أنني أتحرّك، مجلوباً مغناطيسياً بقوّة هي أشدُّ من الفضول، وبخطوة آلية شبيهة بمشي السّائرين في النّوم، وجدتُني مدفوعاً كما لو بفعل السّحر نحو هذه الدّائرة الضّيقة. أصبحت فجأة، بطريقة لا واعية، على بعد عشر بوصات من المتحدّث ووسط الآخرين الذين كانوا من جانبهم من الافتتان بحيث لم ينتبهوا إليّ، أنا أو إلى أيّ شيء آخر. كنت محمولاً بأمواج الخطاب ومُجتاحاً بتدفّقاته، دون حتى أن أعرف ما كان مصدره؛ فلا شكّ أنّ أحد الطّلبة كان قد تطرّق إلى شكسبير بوصفه ظاهرة نَيزَكِية، فبذل هذا الرّجل إذاً من روحه، في وسطهم، كي يُوضّح لهم أنّ هذا الشّاعر لم يكن سوى التّعبيرِ الأشدّ قوّةً، والشّهادةِ الرّوحيةِ عن جيل بأكمله. إنّه التّعبير المحسوس عن مرحلة ساد فيها الحماس. فشكسبير يصف بحركة واسعة هذه اللّحظة الخارقةَ للعادة التي عرفتها إنجلترا، لحظةَ النّشوة الفريدة هذه، الشّبيهة بتلك التي تنبثق دون سابق إنذار في حياة كلّ شعب أو في حياة كلّ فرد، بتركيز القُوّة كلّها في اندفاعٍ جليلٍ قُدُماً نحو الأشياءِ الخَالِدَاتِ. كانت الأرض، فجأة، قد توسّعت، فاكتُشفت قارّة جديدة، بينما كانت القوّة القديمة في القارّة، القوةُ البابوية، مُهدّدة بالانهيار؛ انبثقت فجأة إمكانات جديدة خلف البحار التي أضحت اليوم في ملكية إنجلترا، منذ أن حطّمت الرّياحُ والأمواجُ الأسطولَ البحريّ الإسبانيّ. توسّع الكون فجعلت الرّوح تبحث لها لا إرادياً عن سبيل لتتوسّع هي أيضاً. هي

بدورها تُريد أن تكبر وهي أيضاً تُريد أن تلج الأعماق القصوى للخير وللشّر. تُريد أن تستكشف وأن تتوسّع، كما يفعل الفاتحون. هي في حاجة إلى لغة جديدة تملك قوّة جديدة؛ فتفتّحَ في ليلةٍ أولئك الذين سيتحدّثون هذه اللّغة: الشّعراء... عددهم خمسون، مئةٌ، في عَشْريَة واحدة، رفقاء متوحّشون وأحرار، ما عادوا يَفلَحُون حدائقَ أركاديا ولا ينظمون أشعارهم انطلاقاً من أساطير متّفق عليها كما كان يفعل شُوَيعِرُو البلاط الذين سبقوهم. هم استولوا توّاً على المسرح، فأقاموا سَاحاتِ وغَاهُم على هذه الحلبات التي لم يكن عليها من قبل سوى حيوانات تُطارد لتُصطاد، أو ألعابٌ دموية. إنّ طعم الدّم الدّافئ لا يزال حاضراً إلى الآن في أعمالهم. مأساتهم المسرحية نفسها كانت سيركاً أعظمَ[1] تندفع فيه حيواناتُ الشّعورِ الكاسرةُ بعضها نحو بعض متعطّشة للافتراس. كان غضب هذه القلوب المليئة بالشّغف يتحرّر من مربطه كما تتحرّر الأسود من عقالها. كانوا يسعون إلى أن يتجاوز بعضهم بعضاً في التّوحّش والحماس، وكان مسموحاً لهم بوصف كلّ شيء: زنا المحارم والقتل والجناية والجريمة، فاحتفل الشّعب المتحرّر لكلّ الغرائز الإنسانية بعربدته الحارقة. وهكذا، كما كانت الكواسر الجائعة في زمن

(1) يستعمل الكاتب صيغة Circus Maximus ومعناه الحرفي هو السيرك الأعظم (Le plus grand cirque) ويُسمّى بالإيطالية Circo Massimo، وهو أشسع حلبة لسباق الخيل وأقدمها، بيضَوية الشكل. -المترجم-

مضى هي التي تخرج من معاقلها، أصبحت اليوم حالات الشّغف السَّكْرَى هي التي تندفع، مُطلقة زئيرها وتهديدها، إلى حلبة الأتقياء المُغلَقة. إنّه انفجار لا مثيل له، عنيف كمثل دويّ المفرقعات. انفجار دام خمسين سنة، حمّامُ دم وقذفٌ وتوحّشٌ بلا مثيل حَضَنَ الأرض كلّها ومزّقها. لم تكن الأصوات والوجوه المنفردة تُميَّز إلّا بصعوبة في عربدة القوّة هذه. يتسلّم أحدهم من الآخر النّار المقدّسة، ويُثير أحدُهم الآخر. كلّ منهم يتعلّم من الآخر ويسرق منه شيئاً. كلّ واحد منهم يُصارع ليعلو على الآخرين ويتجاوزهم، غير أنّهم كانوا جميعاً المتصارعين الثّقافيين في حفل واحد بعينه. كانوا عبيداً كسروا سلاسلهم وقد جعل جنّيُّ اللّحظة يجلدهم بسوطه ويدفعهم إلى الأمام. يذهب للبحث عنهم في الأكواخ الحقيرة والمعتّمة في الضّواحي، كما يذهب للبحث عنهم في القصور. آل بن جونسون[1]، حفيدِ البنّاء؛ وآل مارلو، حفيدِ الإسكافيّ، وآل ماسينجر المنحدرِ من رئيس خدمٍ، وآل فيليب سيدني، الثّري العالِم ورجل الدّولة. لكنّ زوبعة النّار

---

(1) كلّ الأسماء التي ستلي تنتمي إلى المرحلة الإليزابيثية التي درسها زفايغ عن كثب أثناء اشتغاله، مع بداية ثلاثينيات القرن العشرين، على سيرة ذاتية لملكة أخرى (ماري ستيوارت (Marie Stuart)، 1524-1587، عاهلة مملكة اسكتلندا. . .)، نشرها سنة 1935. وتُظهر هنا رواية التباس الأحاسيس كيف تُغني إبداعات زفايغ بعضَها البعض (إنّها «الآلة» كما يقول).

اجتاحتهم جميعاً فتراهُم اليوم يُحتفى بهم وغداً يَقضِي آل كيد وآل هيوودس من الفقر المدقع أو يهلكون جوعاً، كما حصل لسبنسر في كينغ ستريت. هم يعيشون جميعاً وجوداً غير منتظم، يحبّون المبارزة بالسّيف ويُرافقون البَغَايَا والممثّلين وقطّاع الطّرق، لكنّهم جميعاً شعراء، شعراء، شعراء. يحتلّ شكسبير المركزَ فيهم، «فهو عمر ذلك الزمن وجسده»، لكن ليس ثمّة وقت حتّى لفصله عن الآخرين لكثرة اصطخاب الأحداث ولفرط تكاثر الأعمال، ولشدّة ما كانت خيوط الشّغف مُتداخلة. وفجأة، وفي تشنّج شبيه بالذي حصل فيه هذا الانفجارُ الأروعُ في تاريخ الإنسانية، هَوَى كلّ شيء وانتهت المأساة، فقد أُنهكت إنجلترا، وحطّ بثقله الضّبابُ الرّمادي والرّطب لنهر التايمز على الفكر لمئات السّنين. كان جيل قد تسلّق، باندفاع متفرّد، قمم الشّغف، باحثاً في زوايا كلّ هاوية فيها، كاشفاً بحمية عن روحه المتحمّسة المجنونة. وها هو ذا البلد أصابه اليومَ النَّصَبُ والإنهاك. أغلقَتْ المسارحَ طُهرانيةٌ مُهتمّة بتفاصيل تافهة، واضعةً بذلك حدّاً للانبثاق الشغوف. استعاد الكتاب المقدّس الكلامَ، الكلامَ الإلهيَّ، في بلد كان قد تجرّأ فيه الكلامُ الأكثرُ إنسانية، عبر كلّ العصور، على تقديم الاعتراف الأكثر حرقةً في كلّ الأزمنة، وحيث عاش مرّة واحدة جيلٌ من أجل آلاف الأجيال الأخرى، فوّاراً بحماس منقطع النّظير.

ثمّ، وبتحوّل مُفاجئ، انصبّ خطاب البروفيسور الحماسيّ

علينا: «أتفهمون الآن لماذا لا أبدأ درسي وفقاً للترتيب التاريخي، وفقاً للتطوّر التعاقبيّ، فلا أبدأ بالملك آرثر وبتشوسر، وإنّما بمُنَاصري إليزابيث، ضدّاً على كلّ القواعد؟ وهل تفهمون أنّني أطلب منكم، قبل كلّ شيء، أن تألفوهم وأن تنسجموا مع هذا التّوْقِ المطلق للعيش؟ ذلك أنّه لا وجودَ لذكاء فقهيٍّ لغويٍّ إن لم نلِج الحياة نفسها، وليس ثمّة من دراسة نحوية للنّصوص في غيابِ المعرفة بالقيم. وأنتم، أيّها الشّباب، عليكم أن تفهموا أوّلاً البلد واللغة اللذين تريدون الإحاطة بهما، انطلاقاً من أسمى شكل في الجمال اتّسما به، ومن أقوى شكل من الشّباب حظيا به، ومن أكثر مراحلهما شغفاً. عليكم أن تستمعوا إلى اللّغة لدى الشّعراء؛ لديهم هم الذين خلقوها ويُمكّنونها من شكلها الممتاز. عليكم أن تشعروا بالشّعر يحيا ويتنفّس في قلوبكم، قبل الشّروع في تشريحه ودراسته. هذا هو السّبب الذي يجعلني أبتدئ دوماً بالآلهة، لأنّ إنجلترا الحقيقية هي إليزابيث وهي شكسبير والشّكسبيريون. كلّ ما يسبق ليس سوى تمهيد وكلّ ما يلحق ما هو إلّا تقليد أعرج لهذا الاندفاع الأصيل والجريء نحو اللانهائي. لكن استشعِروا، أيّها الشباب، استشعِروا أنتم أنفسكم ها هنا النّبضَ الأكثر خفقاناً لشبابِ عالمنا هذا! فنحن لا يُمكننا أن نتعرّف أبداً إلى ظاهرةٍ وإلى نزعة فردانيةٍ إلّا من لهَبِهَا، إلّا من شغفها، وكلُّ فكرٍ إنّما يأتي عبر الدّم، وكلّ فكرة تأتي من الشّغف، وكلّ شغف من الحماسة. هو ذا السّبب،

أيّها الشّباب، في كون شكسبير ومن وَالاَهُ، قبل الآخرين جميعاً، هم من سيجعلونكم أكثر شباباً! الحماس أوّلاً ثم التّطبيق المثمر. هو أولاً السّامي والعالي، شكسبير، هذا **المُختَزِلُ**[1] الفاتن للكون، قبل دراسة النّصوص كلمة كلمة!».

«هذا يكفي اليوم، إلى اللّقاء». قال مُحدثاً بيده حركة تلخيص مستديرة مفاجئة، واضعاً بتعالٍ نهاية للموسيقى، وهو يقفز من على الطاولة. تفكّك على الفور جمع الطَّلَبة الذين كانوا مُلتحمين بعضهم ببعض وكأنّ هزّة قد خلخلتهم، فطقطقت الكراسي مسحوبة وتزحزحت الطاولات، وجعلت عشرون حنجرة كانت قد ظلّت إلى هذه اللّحظة خرساء، تتحدّث وتسعل وتتنفّس بعمق. في هذه اللّحظة يُفهم كم كان مغناطيسياً الافتتان الذي أغلق من قبل كلّ الأفواه، وقد أصبحت الآن نابضة بالحياة. أصبحت الحركة والاختلاط اللذان سادا القاعة الضّيقة أكثر حماسة وحيوية. ذهب بعض الطّلبة في اتّجاه البروفيسور لشكره أو ليُسرّوا له بأمر، بينما جعل الآخرون، بوجوههم المتضرّجة، يتبادلون الانطباعات، لكن لا أحد بقي بارداً ولا أحد أفلت من حركية هذا التيار الكهربائي الذي انقطع فجأة وقد بقيت، مع ذلك، شرارات خفية منه وفوَحَانٌ يسري في الجوّ المترع ضغطاً.

---

(1) Repetitorium بالألمانية، وهو مُصطلح يُشير إلى كتاب مدرسيّ (يعني بالفرنسية: Répétiteur أي المكرِّر، وقد سمّي كذلك لأنّه يُكرّر الدّروس نفسها التي تُقدّم داخل الفصل).

أمّا أنا فقد بقيت عاجزاً عن الحركة. كنت كأنّني قد تلقّيت ضربة في قلبي، مفتوناً وقادراً فقط على إدراك الأمور بطريقة مَشغوفة، فتحفّزت حواسي كلها بقوّة. كنت أشعر للمرّة الأولى أنّ أستاذاً، أنّ رجلاً يأخذ بلبّي. كنت تحت تأثير سموٍّ قوّةٍ يغدو الانحناءُ أمامها واجباً مُطلقاً ولذّة. أحرقني دمي في شراييني، كنت أشعر بذلك، وأضحى تنفّسي أسرع. كان هذا الإيقاع العجول يخفق في كلّ جسدي ويتوزّع بلهفة كلّ مفاصلي. استسلمت في الأخير لاندفاعي، فتقدّمت ببطء إلى أن أدركت الصّفوف الأولى كي أرى محيّا هذا الرّجل، لأنّني لم أرَ، وهو ما يدعو للاستغراب، قسماتِه عندما كان يتحدّث، لفرط ما كانت مُلتحمةً بكتلة خطابه. ثمّ إنّني لم أستطع في البداية أن ألمح إلّا جانباً منه غيرَ واضح، وكأنّه طيف. كان واقفاً، مُلتفتاً جزئياً نحو طالب، واضعاً كفّه بألفة على كتفه، مُناراً بشعاع الضّوء القادم من النّافذة. لكن حتّى هذه الحركة التّلقائية كانت تتسّم بحبّية وبعطف لم أتصوّر قطّ إمكانية وجودهما لدى رجل تربية.

في غضون ذلك انتبه بعض الطَّلَبة لوجودي، وتفادياً لأن يعتبروني دخيلاً قمت بخطوات جديدة في اتّجاه البروفسور وانتظرت أن يفرغ من محادثته. في هذه اللّحظة استطعت أن أفحص محيّاه على مهل: رأس رومانيّ، بجبهة مرمرية بارزة تعلو جانبيها البرّاقين موجةُ شعر أبيض مردودٍ إلى الخلف في شكل عرف. كان ذلك يُعطي انطباعاً قوياً بالجرأة البادية في

محيّا يعكس تعبيراً قوياً عن نزعة ثقافية واضحة، لكن الوجه، أسفل التغضنات العميقة المحيطة بالعينين، كان سرعان ما يرتخي، فيبدو شبه مؤنّث بسبب الاستدارة الملساء للذّقن والشّفة المتحرّكة؛ تلك الاستدارة التي كانت تبدو أحياناً في شكل ابتسامة وأخرى في شكل تمزّق داخليّ مُقلق. وما كان يُعطي، في الأعلى، للجبهة جمالَها الرّجولي، كان الجلد البلاستيكي الرّخو يجعله يتحلّل في الوجنتين المرتخيتين قليلاً وفي الفم المتغيّر. كان وجهه، المنظور إليه عن قرب، والذي يبدو لأوّل وهلة مهيباً وسلطوياً، يُنشئ لدى الرّائي انطباعاً بالضّغط القويّ الذي يُعانيه. كانت حالُ جسده تُعرب عن ازدواجية ظاهرة. كفّه اليسرى تحطّ غيرَ ثابتةٍ على الطّاولة، أو على الأقلّ كانت تبدو موضوعة عليها، لأنّ خفقات ضعيفة مُتشنّجة كانت تعبر باستمرار مفاصل أصابعه الرّقيقة بالنسبة إلى كفّ رجل، والدقيقة جدّاً، والشّديدة الرّخاوة، والتي كانت ترسم بحماس وجوهاً غير مرئية على الخشب العاري للطّاولة، بينما كانت عيناه الملفوفتان بجفنَين ثقيلَين مُنكّستَين عاكستَين الاهتمامَ الذي يوليه لحديثه مع الطّالب. هل هو القلق أم أن التأثّر لا يزال ينبض في عروقه المصطخبة؟ فالارتعاش اللاإرادي لكفّه كان يتناقض، على أيّ حال، مع انتباهه الصّبور وهدوء وجهه الذي كان يجعله يبدو، بتعبه وتركيزه معاً، مُستغرقاً في الحوار الذي يُقيمه مع الطّالب.

جاء دوري أخيراً فتقدّمت وصرّحت باسمي وبنواياي،

فتألّقت عيناه فوراً وهو ينقلب نحوي ببؤبؤيه اللذين يكادان يكونان أزرقَين. خلال ثانيتَين وافيتَين أو ثلاث اجتاح هذا الشّعاعُ كلّ وجهي من الذّقن إلى الشّعر. ولا شكّ أنّ هذا الامتحان المُمحِّص والمتفحِّص جعل وجهي يتضرّج، لأنّ البروفسور أجاب عن اضطرابي ببسمة سريعة وهو يقول: «تُريد إذاً أن تُسجّل في درسي. علينا أن نتحادث في ذلك معاً بطريقة أكثر دقّة. اعذرني على عدم استطاعتي القيام بذلك فوراً لأنّ لديّ أسئلة عليّ الإجابة عنها، لكن انتظرني في الأسفل أمام البوابة ثم سترافقني حتّى منزلي». ومدّ لي كفّه في نفس الآن؛ كفّ دقيقة وليّنة كان اتّصالها بأصابعي أنعم من قفاز، بينما كان هو قد التفت سلفاً، بدماثة، نحو الطّالب التّالي المنتظِر.

بقيت واقفاً إذاً أمام البوابة عشر دقائق، خافق القلب. ماذا سأقول له إن سألني عن دراستي؟ كيف سأعترف له بأنّني دائماً ما أقصَيتُ من عملي كما من ساعات فراغي أيَّ موضوع أدبيّ؟ ألن يحتقرني أو يُبعدني على الأقلّ فوراً عن دائرة النّار هذه التي أشعر أنّني اليوم أتحرّق فيها كما لو بفعل السّحر؟ لكن ما أن اقترب منّي بخطى واسعة، راسماً على شفتيه بسمة جميلة، حتّى وجدت حضوره كافياً لشطب كلّ انزعاجي. ودون أدنى إلحاح منه اعترفت (غير قادر على إخفاء أيّ شيء عنه) أنّني استثمرت بطريقة سيّئة جدّاً نصف السّنة الأوّل. ألقى عليّ نظره من جديد مُبدياً اهتمامه الدّافئ (نظره إليّ كان هو

أيضاً جزءاً من الموسيقى)، وابتسم ليُشجعني. وكي لا يجعلني، على ما يبدو، أزداد شعوراً بخجلي من جهلي، اكتفى بسؤالي عن أمور شخصية كمسقط رأسي والمكان الذي أنوي الإقامة فيه. وعندما قلت له إنّني لم أبحث بعد حتّى الآن عن غرفة أتّخذها مسكناً، اقترح علي عونَه ونصحني بالذّهاب للبحث عن مأوى حيث يقطن هو، لأنّ امرأة عجوزاً شبه صمّاء تُؤجّر غرفة صغيرة جميلة كان الكثير من طلبته قد أبدوا ارتياحهم فيها، أمّا الباقي فسيتكفّل به هو شخصياً؛ فإن كنت أنوي حقّاً أن آخذ الدّراسة مأخذ جدّ فإنّه سيعتبر مساعدتي في كلّ شيء واجباً عزيزاً يقوم به. عندما وصلنا أمام منزله مدّ لي كفّه من جديد ودعاني لزيارته في مسكنه غداً مساء حتى نضع معاً خطّة عمل. كان امتناني للطّيبة غير المنتظرة التي أبداها نحوي هذا الرّجل كبيراً حتّى أنّني لم أستطع إلّا أن أُلامس كفّه باحترام وأن أرفع قُبّعتي بطريقة تُبدي تبلبلي، ناسياً التلفّظ بكلمات شكر.

كان من باب تحصيل الحاصل أن أستأجر الغرفة الصّغيرة في هذه الدّار. فحتّى لو لم تكن قد أعجبتني، ما كنت لأتخلّف عن اتخاذها مسكناً لي، استجابة فقط لهذا الانطباع، السّاذج والممتَنّ، بأن أكون مكانياً قريباً جدّاً من هذا الأستاذ الآسر الذي أعطاني في ساعة واحدة أكثر ممّا أعطاني إياه الآخرون جميعاً. بيد أنّ الغرفة كانت رائعة، تقع أعلى شقّة

أستاذي، مُعتّمة قليلاً بسبب سقفها الخشبي هرمي الشّكل، وتسمح نافذتها برؤية واسعة مُستديرة مُنفتحة على السّطوح وعلى قبّة الجرس، يُلمح في البعيد مُربّعُ خُضرة، وفوق ذلك كلّه تُقيم السّحبُ؛ السّحب العزيزة لوطني. كانت عجوز ضئيلة صمّاء كمثل أصيص تُولي عناية أمومية مؤثّرة بأيتام. اتّفقت معها فيما لا يزيد عن دقيقتين، وساعة بعد ذلك، كانت حقيبتي الصّارّة تُطلق صراخها أثناء صعود السُّلّم الخشبي.

لم أخرج البتّة في هذا المساء. نسيت حتّى أن آكل وأن أدخّن. كان أوّل ما فعلته أن استخلصتُ من حقيبتي كتاب شكسبير الذي كنت قد حملته معي مصادفة، مُتعجّلاً قراءَته (للمرّة الأولى بعد سنوات). كان فضولي قد تأجّج حتّى غدا شغفاً بفضل خطاب البروفسور، فقرأت مؤلَّف شكسبير الشّاعر كما لم يسبق لي أن قرأت كتاباً قبل ذلك. هل بالإمكان تفسير تحوّلات مثل هذه؟ غير أنّني سرعان ما اكتشفت عالمَ هذا النصّ. كانت الكلمات تُسارع نحوي كما لو أنّها تبحث عنّي منذ قرون. يعدو البيت الشّعريّ -وهو يسحبني كأنّه موجة من نار- حتى يُدرك أعمق أعماق شراييني، إلى درجة أنّني كنت أشعر في صدغي بهذا النّوع من الدّوار الذي نشعر به عندما نرى في الحلم أنّنا نطير. كنت أهتزّ وأرتعش وأُحسّ بالدّم يجري أكثر دفئاً في عروقي. استولى عليّ نوعٌ من الحمّى. لم يكن شيء من هذا قد سبق أن حصل لي قطّ، بيد أنّني لم أفعل، مع ذلك، إلّا أن أنصتّ لخطاب مُتحمّس يبدو أنّه لا

يزال إلى حدّ الآن متمكّناً مني؛ إن كرّرت سطراً شعرياً بصوت مرتفع شعرت أنّ صوتي يُقلّد لا شعورياً صوته، وكانت الجمل تتوالى وفق نفس الإيقاع المتعجّل، وتحدو كفّي رغبةٌ، كمثل كفّيه، في التّحليق والطّيران. وكما لو بضربة سحر، كنت في ساعة واحدة قد هدّمت الجدار الذي كان يفصل بيني وبين الفكر، إلى حدود هذه السّاعة، فاكتشفت أنّني أنا نفسي مشغوفٌ جِبِلّةً، مالكٌ لافتتان ظلّ وفيّاً لي حتى اليوم، وأنّ لي رغبة في الاستمتاع بكلّ شيء أرضيٍّ مُشكّل في كلمات مُلهَمَة. كنت قد وقعت صدفة على كريولانس[1] فأخذني ما يُشبه الدّوار عندما وجدت في البروفيسور كلّ عناصر هذا الرّجل الأكثر فرادة من بين كلّ الرّومانيين: الاعتزاز بالنّفس والكبرياء والغضب والسّخرية والهُزء وكلّ الملح وكلّ الرصاص وكلّ الذهب وكلّ معادن الإحساس. يا لها من مُتعة جديدة بالنسبة إلي أن أكتشف هذا وأن أفهمه فجأة وبطريقة سحرية! قرأت وقرأت إلى أن تقرّحت عيناي، وعندما نظرت في ساعتي وجدتها تُشير إلى الثالثة والنصف صباحاً. أطفأت النّور شبه مرعوب من هذه القوّة الجديدة التي تلبّستني وجعلت حواسّي، طوال ستّ ساعات، تهتزّ مُنبهرة، لكنّ الصور استمرّت مع ذلك تلمع أمامي وتتألّق. استطعت أن أنام

---

(1) *Coriolan*، مأساة ألّفها شكسبير سنة 1608، بطلها جنرال روماني تُذكّر خيانتُه بشخصية تيرزيت (Thersite) التي بنى عليها زفايغ إحدى مآسيه سنة 1906.

بصعوبة، مشمولاً بتطلّعي إلى بزوغ يوم غد، مُنتظراً إيّاه، هو الذي سيُوسّع، كما فكّرت لحظتئذٍ، هذا الكون الذي اكتُشف فيّ بطريقة سحرية والذي سيجعله مُلكاً خاصّاً بي.

لكن صباح اليوم الموالي أتاني بخيبة أمل. جعلني تعجّلي أكون أحد الحاضرين الأُوّل إلى القاعة التي كان من المفروض أن يقدّم فيها أستاذي (لأنّني هكذا سأسمّيه من الآن فصاعداً) ذرسه في علم أصوات اللغة الإنجليزية. كان دخوله كافياً ليُصيبني بالهلع. أهذا هو نفس رجل الأمس أم أنّ فقط ذهني المثار وذكرايَ هما ما كانا جعلا منه كريولانس الملتهب الذي يُلقي في الميدان بالكلام المتوعِّد وكأنّه البارود، لا سلطان للخوف عليه، مُبدياً بطولته، مُذلّاً ومروّضاً وواضعاً حدّاً لكلّ مُقاومة؟ من يدخل ها هنا بخطوٍ واهن مسحوبٍ هو رجلٌ شيخ مُتعب. كما لو كان طلاءٌ مُنير قد أُزيح من محياه، فلاحظت، لحظتئذٍ، جالساً في الصّف الأوّل، أنّ قسماته الباهتة والموحية بالمرض تعبرها تجاعيد عميقة وشقوق واسعة، وتحفر ظلالٌ زرقاء ما يُشبه قنوات في وجنتيه المزرقّتين والمترهلتين. وبينما شرع يقرأ، كان جفناه الثّقيلان جدّاً يحجبان عينيه، وكان فمه -ذو الشّفتين عديمتَي اللّون والشديدتي الرّقة- يُجرّد الكلام من أيّ رنّة. أين اختفى ابتهاجه كلّه وهذا الحماسُ الذي كان يرشح من فرحه الجِبلّي؟ حتى صوته كان يبدو لي غريباً، وكأنّه قد فقد سحره بسببٍ من

هذا الدّرس في قواعد اللّغة، فجعل يتقدّم بصعوبة بخطو رتيب ومُتعَب، عبر رمل يُسمع فيه انكسار حادّ.

استبدّت بي الحيرة. من يوجد أمامي ليس هو بالتّأكيد الرّجل الذي كنت أنتظره بنفاد صبر منذ مطلع النّهار. ماذا أصاب وجهَه الذي كان يلمع بالأمس كمثل نجم؟ من يوجد أمامي هو بروفيسور مُنهك يُلقي درسه ببرود! أنصتُّ، بهذا القلق المتجدّد والمستمرّ، إلى نبر كلامه مُنتظراً مع ذلك أن يعود إليه خفقانه الحارّ الذي كان قد احتضن بالأمس كياني وكأنّه كفٌّ سمعِيةٌ، فرفعه إلى حدود الشّغف. كان نظري يُتابعه بقلق مُتزايد، جاسّاً بشكل من الأشكال -مغموراً بالخيبة- هذا الوجه الذي أضحى غريباً. ما لا يرقى إليه الشّك هو أنّه الوجه نفسه، لكنّه يبدو مُفَرّغاً من كلّ قواه الخلاّقة ومُجرّداً منها، ومُتعباً مُجتاحاً بالشّيخوخة، فصار كمثل قناعِ وجهِ شيخ مُغضّن. لكن هل يُمكن لشيء مثل هذا أن يحصل؟ هل يُمكننا أن نكون في ريعان الشّباب في لحظة ما ونصير في اللّحظة الموالية بهذا القدر من التّقدّم في السّن؟ هل توجد حالات غليانٍ للفكر تُحوِّلُ فجأة الوجه كما الكلام، وتجعل المرء يعود إلى شبابه عشر سنوات خلت؟

حيّرني السّؤال فشعرت بما يُشبه التّعطّش يصطخب فيّ لأن أعرف أكثر هذا الرّجل ذا المظهر المزدوج. وامتثالاً لفكرة مُفاجئة راودتني، وما أن غادر كرسيه ومرّ أمامنا دون أن ينظر إلينا، حتّى عدوت في اتّجاه خزانة الكتب وطلبت منشوراته،

فلربّما كان اليومَ مُتعباً فحسبُ وأنّ حماسته أعاقها إكراه جسديّ، لكن هنا، في الكتب المعدّة لتدوم، سأعثر بالتأكيد على وسيلة لولوج شخصيته وفهمها بعد أن ألقت في روعي بهذه الحيرة كلّها. أتاني الفتى بالكتب، ففوجئت بعددها القليل. هذا الرّجل الذي جعل الآن يشيخُ لم ينشر في غضون عشرين سنة سوى هذه السلسلة الصغيرة من الكرّاسات المرتخية ومن المقدّمات والديباجات وأطروحةٍ حول كتاب **بيركليس** لشكسبير ومقارنة بين هولدرلين وشيلي[1] (في زمن لم يكن أيّ منهما، بالفعل، يُعتبر في شعبه عبقرياً) وما عدا هذا فليس ثمّة إلّا بضاعة فلسفية هيّنة القيمة. والحقّ أنّ هذه الكتابات كلّها كانت تُعلِن عن نفسها وكأنّها إعداد لتأليف كتاب من جزأين يحمل عنوان: **مسرح الكرة الأرضية**[2]، **تاريخه ووصفه وكُتّابه**. لكن، رغم أنّ هذا الإعلان يعود إلى عشرين سنة خلت، فإنّ القيّم على الخزانة أكّد لي، بعد أن ألححت عليه في السّؤال، أنّ هذا المؤلَّف لم يرَ النّور قط. شرعت - مُتوجّساً قليلاً، لا أملك إلّا الزّهيد من الشّجاعة- في تصفّح

---

(1) هولدرلين (1770-1843) وشيلي (1792-1822)، وجهان بارزان من الاتّجاه الرومنطيقي الأوروبّي، فتنت زفايغ طبيعة كتاباتهما «الشّيطانية». وقد خصّص لهولدرين بحثاً في كتابه معركة ضد الشيطان المنشور سنة 1925.

(2) Le Théatre du Globe، قاعة مسرحية ثُمانية الزّوايا نشطت ما بين سنة 1599 وسنة 1642، وقد تمتّعت بشعبية كبيرة مع بداية القرن السّابع عشر. كان شكسبير أحد المساهمين فيها.

هذه الكرّاسات، يحدوني أمل متأجّج في أن أعثر فيها من جديد على صوته المُثمل وإيقاعه المندفع. غير أنّ هذه الكتابات كانت تتقدّم بخطى حادّة لا تتبدّل، فلا يرتعش في أيّ جزء منها الإيقاعُ ويخفّ ويعلو على نفسه كما تعلو الأمواجُ الأمواجَ. يا للحسرة! قال أمرٌ ما فيّ مُتنهّداً، وحَدثْني رغبةٌ في أن ألكم نفسي، لفرط ما كنت أرتعش من الغيظ ومن الرّيبة في إحساسي الذي خضع له بسرعة بالغة وبسذاجة. لكنّني تعرّفت إليه من جديد، في فترة ما بعد الظّهر في النّدوة. فهو، بدءاً، لم يتحدّث بنفسه؛ توزّع هذه المرّة، وتبعاً لطريقة «الإعداديات» الإنجليزية، ما يزيد عن عشرين طالباً في فريقَين، لمناقشة موضوع يرتبط أيضاً بشكسبيره المحبوب، فيُدافع فريق ويُعارض آخر. كان مطلوباً منهم أن يُناقشوا ما إذا كان بالإمكان اعتبار شخصيتَي تروالوس وكرسيدا (في كتابه المفضّل) تجسيداً لمحاكاة ساخرة، وما إن كان الكتاب نفسه ملهاة هجائية أم مأساة مُقنّعة بالسّخرية. وسرعان ما التهب هذا الحوار الفكريّ البسيط، تحت إشرافه الحاذق، فاجتاحه نشاط كهربائيّ قويّ. جعلت الحجج تصدر بقوّة ضدّ التأكيدات المفتقدة لما يُؤيّدها. مُقاطعات وتعجّبات تُحفّز بقوّة حدّةَ المناقشَة وتهوُّرَهَا، إلى درجة أنّ هؤلاء الشّباب كانوا يُبدون لبعضهم البعض ما يُشبه العدوانية. في هذه اللّحظة فقط، وعندما كانت الشّرارات تبدأ تتطاير في الفضاء، كان البروفيسور يتدخّل فجأة، فيُهدّئ من المواجهة بعد أن تُصبح

عنيفة، مُعيداً ببراعة النّقاش إلى موضوعه الأساس، مع عمله، في الآن نفسه، على أن يضخّ فيه، اعتماداً على تحفيز خفيّ، اندفاعةً روحية قوية تجعله يتقدّم إلى ما لا نهاية. هكذا كان يُصبح فجأة في مركز لعبة التأجّج الديالكتيكي هذه، مغموراً هو نفسه بإثارة مُبتهجة، فيُذكي تارة معركة الدِّيَكة هذه بين الأفكار، ويُهدّئها تارة أخرى، مُتحكّماً في هذه الموجة من الاندفاع الطفولي الحماسي، ومأخوذاً بها هو نفسه. كان ينظر إلى أحدهم وإلى الآخر، مُستنداً إلى الطاولة ومُشبّكاً ذراعيه على صدره، مُتبسّماً لهذا ومُشجّعاً ذاك خفية على الرّد، فكانت عينه تلمع بنفس بريق الأمس. كنت أشعر به مُضطرّاً لتمالك نفسه حتى لا يأخذ الكلمة، دفعة واحدة، من أفواههم جميعاً. لكنّه كان يجد صعوبة بالغة في التحكّم في نفسه. كان ذلك يبدو من كفّيه اللتين تضغطان بقوة على صدره وكأنّهما ضلعا برميل؛ وكنت أُخمّن ذلك من حاشيتي شفتيه المرتعشتين وهما تحبسان بصعوبة الكلمة التي تبدو سلفاً خفّاقة خلفهما. وعلى حين غرّة، بدا الأمر أقوى منه، فارتمى بلذّة في النّقاش، وكأنّه غطّاس. بحركة قوية من يده الحاسمة قسم الصّراع كما تفعل العصا الدّقيقة لقائد الجوقة. صمتوا جميعاً على الفور، فلخّص هو الحجج بطريقته المتناسقة. وبينما كان يتحدّث جعل وجهه الذي كان له بالأمس ينبعث من جديد. اختفت التّجاعيد وراء نار أعصابه المتّقدة وتمدّد عنقه وطيفه في حركة جريئة ومسيطِرة، وانطلق -مُتخلّياً عن الشكل المقوّس للمُراقِب الذي

كانه- في خطابه وكأنّه يرتمي في بحر لُجّي. استهواه الارتجال فبدأت أفهم أنّه كان مشمولاً، قبل الآن، بأجواء باردة عندما كان وحيداً، وأنّه كان محروماً أيضاً -أثناء تقديم الدرس النظري أو في وحدته بمكتبه- من هذه المادة الملتهبة التي جعلته هنا -في مجموعتنا القوية، وقد استبدّ به الافتتان وقطع أنفاسَه- يُحطّم حاجزاً في داخله. كان في حاجة (أوه، كنت أستشعر ذلك!) إلى حماستنا كي تكون له هو أيضاً حماسته؛ كان في حاجة إلى اهتمامنا بدفقاته الفكرية وإلى شبابنا كي ينطلق في اندفاعه الشبابي. وكما يَثْمَلُ عازف آلة السيمبالوم بالإيقاع الذي يزداد توحّشاً والصّادرِ عن كفّيه المصطخبتين، كان خطابه هو يزداد قوّة ويتأجّج أكثر ويُصبح أوضح وأكثر اندفاعاً. وكلّما كان صمتنا يزداد عمقاً (على الرغم منا كُنّا نحسّ في الجو بالأنفاس المحبوسة) كان خطابه يُمعن في تحليقه، ويُصبح أشدّ أسراً، مُنطلقاً كأنّه نشيد. في هذه اللّحظات، كنّا جميعاً ننتمي إليه، إليه وحده، مأخوذين بالكلّية بهذه الحماسة.

ثمّ خبت من جديد، فجأة، إثارتنا عندما أنهى حديثه بالتطرّق إلى مقطع من خطاب لغوته عن شكسبير[1] ومن

---

(1) قد تكون الإشارة هنا إلى نص شبابيّ يعود إلى سنة 1771 (*Zum Shakespeare Tag*, Hamburger Ausgabe, vol. 12, pp. 224-227) أو أيضاً إلى نصّ يعود إلى سنة 1815، عنوانه (*Shakespeare und kein Ende*, ibid, pp. 287-298).

جديد استند، كما فعل بالأمس، إلى الطّاولة مُتعباً، وجهه ممتقع، لكن لا تزال تعبره الاهتزازات الصّغيرة وارتعاشاتُ عروقه، بينما ظلّت تلمع في عينيه شهوةُ دفقته كمثل امرأة انتُشلت لتوّها من ضمّة قوية. تردّدت في محادثته في هذه اللحظة، لكنّ نظرته وقعت مصادفة عليّ، فأحسّ لا مراء بامتناني المتحمّس، لأنّه ابتسم لي بمودّة وذكّرني، وقد التفت جزئياً نحوي وأحاط كتفي بيده، أنّ عليّ أن ألتحق ببيته، هذا المساء نفسه، كما اتّفقنا على ذلك.

كنت في بيته في تمام الساعة السابعة. ويا لها من ارتعاشة أحسّ بها المراهق الذي كنته وهو يجتاز هذه العتبة لأوّل مرّة! لا شيء حقّاً أكثرُ شغفاً من الإجلال الذي يكنّه شاب لشخص ما، ولا شيء أكثر مدعاة للخجل ولليُونة من الحشمة القلقة. قادوني إلى مكتب عمله، وهو غرفة شبه معتّمة حيث لم أرَ أوّل الأمر، عبر زجاج الخزانات، سوى الظّهور المزوّقة لعدد هائل من الكتب. كانت لوحة مدرسة أثينا لرافاييل معلّقة فوق الطّاولة، وهي لوحة كان يُحبّها خاصّة (كما سيشرح لي بعد ذلك)، لأنّ كلّ الاتّجاهات والتّيارات الفكرية توجد فيها مُوحّدة في تركيب ممتاز. رأيت الوجه الحازم لسقراط، لأوّل مرّة، فاعتقدت، على الرغم مني، أنّني قد اكتشفت فيه تشابهاً مع جبهة أستاذي. وأبعد في الخلف كان يلمع مرمر أبيض، هو نُسخة مُصغّرة جميلة من جذع

غانيميد[1] الموجود بمدينة باريس، وقريباً منه العمل الإبداعيّ الموسوم بـ **سان سيباستيان**[2] والذي أنشأه أستاذ ألماني متقدّم في السّن. جمال تراجيديّ لم يُوضع، على الأرجح، اعتباطاً إلى جانب جمال مُثير. انتظرت، خافقَ القلب وصامتاً كمثل كلّ هذه الأعمال الفنّية النّبيلة والخرساء المحيطة بي. كانت هذه الأعمال تُعبّر رمزياً عن جمال روحيّ جديد عليّ، لم يسبق لي قطّ أن أحسست به ولم أكن أفهمه بعدُ بوضوح كامل، رغم أنني أحسستُني مستعدّاً للتّواصل معه بروح أخوية. غير أنّني لم أحظَ إلّا بوقت وجيز لتأمّل هذا كلّه، لأنّ الذي كنت أنتظره أقبل نحوي. ومن جديد حطّت عليّ هذه النّظرة التي لفّتني برفق، متأجّجة كما لو بنار خفية؛ نظرة فاجأتني بأن أذابت أكثرَ ما كان خفياً في كياني وفتّحَته، فجعلتُ أُحادثه على الفور بحرية كاملة، كأنّه صديق. سألني عندئذٍ عن دراستي ببرلين، فصعدت إلى شفتيّ، رغماً عني (وقد ارتعبت أنا نفسي من ذلك) حكايةُ زيارة والدي، فأكّدت لهذا الرّجل الغريب الميثاقَ السّري الذي التزمت من خلاله بأن أنقطع للدّراسة بجدّية كاملة. نظر في وجهي بادٍ عليه

---

(1) غانيميد (Ganymède)، في الميثولوجيا الإغريقية، شابّ طروادي وسيم اختطفه زيوس وأخذه إلى جبل أوليمبوس، فأصبح خادماً للآلهة. -المترجم-

(2) سان سيباستيان (Saint Sébastien)، قدّيس شهيد رومانيّ، عاش في القرن الثّالث. -المترجم-

التّأثّر: «ليس فقط بجدّية، يا فتايَ، قال بعد ذلك، وإنّما، على الخصوص، بشغف. إنّ من لا شغف له يغدو في الأكثر رجلَ تربية. دائماً ما يجب أن نذهب نحو الأشياء بدواخلنا، اعتماداً دائماً ودائماً على الشّغف». كان صوته يغدو أكثر فأكثر دفئاً، والغرفة أكثر عتمة فأكثر. أسهب في حديثه عن طفولته، وحكى لي كيف بدأ هو أيضاً متهوّراً وكيف أنّه لم يعثر على شغفه إلّا متأخّراً: ما علي إلّا أن أكون مِقدَاماً، وسيُساعدني، في حدود إمكاناته. يُمكنني أن ألتجئ إليه بلا تردّد، مهما كانت رغباتي وأسئلتي. أقول من جديد إنّه لم يسبق لأحد قطّ أنّ حدّثني بهذا الاهتمام كلّه، وبهذا القدر من التفهّم. كنت أرتعش امتناناً وكنت سعيداً بأن أخفَتِ العتمةُ عينَيّ النديتَين.

كان بإمكاني أن أظلّ في هذه الحال ساعات، دون أن أنتبه إلى انصرام الوقت، غير أنّ الباب طُرق برفق وانفتح. دخل خيال رقيق، وكأنّه ظلّ. نهض وقدّمه لي: «زوجتي». اقترب الخيال الرشيق الدقيق ووضع كفّاً صغيرة في كفّي وقال، مُلتفتاً نحو أستاذي: «العشاء جاهز. - نعم نعم، أعرف ذلك». أجاب مُتعجّلاً و(على الأقلّ، كان هذا هو انطباعي) بإهابٍ مُنزعج قليلاً. بدا وكأنّ أمراً ما بارداً كسا فجأة صوته، وبما أنّ ضوء الكهرباء أصبح الآن متأجّجاً، فقد أضحى من جديد الرّجلَ الشّيخ الذي كان في قاعة الدّرس الكئيبة، وصرفني بحركة مُتعَبة.

قضيت الأسبوعين المواليَين أقرأ وأتعلّم باندفاع مشغوف. كنت لا أكاد أخرج من غرفتي. وكي لا أُضيع الوقت، كنت أتناول طعامي واقفاً. أدرس بلا انقطاع وبلا استراحة وأكاد لا أنام. كان شأني شبيهاً بهذا الأمير في الحكاية الشرقية، والذي كان يعثر في الغرف، بعد أن يكسرَ تباعاً الأختامَ الموضوعة على أبوابها، على أكوام من الحليّ الضّخمة والأحجار الكريمة، مُستكشفاً بنهم مُتزايد سلسلة الغرف، مُتلهّفاً للوصول إلى الغرفة الأخيرة. كنت أنا مثله تماماً أسارع من كتاب إلى كتاب، مُفتتناً بها كلّها، لكن دون أن أُدرك شِبَعي. لقد انتقل اندفاعي، الآن، إلى مجال الفكر، فحدث لديّ انطباع أوّلي عن شساعة العالم الفكري الذي لم يُستكشف بعد. وبقدر ما كان هذا العالم يُغويني كما أغواني قبله عالم المغامرات في المدن، كانت ريبة طفولية تستبدّ بي من أن أكون عاجزاً عن السّيطرة على هذا العالم. كنت أيضاً أجتزئ من نومي ومن مُتعي ومن مناقشاتي ومن كلّ ضرب من أضرُب التّسلية، فقط كي أستغل بشكل أحسن الزّمنَ الذي وعيت، لأوّل مرّة، قيمته. لكن ما كان يُثير بهذا القدر حماستي هو بالخصوص عزّةُ نفسي حتى لا أظهر أمام أستاذي مدحوراً وكي لا أُخيّب ثقته فيّ وحتى أحصل منه على ابتسامةِ مُوافَقَةٍ فأجعلَه يرتبط بي كما كنتُ أنا مُرتبطاً به. كنت أجعل من كلّ مناسبة امتحاناً لي. أحفّز قدراتي باستمرار (كانت لا تزال ضامرة، لكنّها

أضحت نشطة بقدر ملحوظ) حتّى أُؤثّر فيه وأفاجئَه؛ فإن سمّى أثناء تقديمه لدرسه كاتباً ليس لي علم بمؤلّفاته، كنت أنطلق بعدَ الظّهر في البحث عنها حتى أستطيع في اليوم التالي أن أعرض بزهو معارفي خلال المناقشة. وكانت رغبةٌ يُعبّر عنها بطريقة عابرة، لا يكاد ينتبه إليها الآخرون، تُصبح عندي أمراً. وهكذا فقد كفى إبداؤه ملاحظةً عابرة حول إدمان الطَّلَبة التّدخينَ كي أُلقي فوراً من يدي بالسيجارة المشتعلة، وأتخلّى هكذا فجأة وإلى الأبد عن هذه العادة التي ذمّها. كان كلامه، كمثل كلام داعية دينيّ، يُصبح عندي قانوناً وأُعطية. انتباهي الذي لم يكن يكفّ عن المراقبة والتّرصّد، كان دائماً متحفّزاً فيقتنص بنهم كلّ ملاحظة تصدر عنه، حتى إن كانت باهتة القيمة. صرت وكأنّني بخيلٌ يضمُّ إلى مَتَاعِه كلَّ كلمة تصدر عنه وكلّ حركة يُؤتيها، وكنت في غرفتي أجسّ هذه الغنيمة بحواسّي كلّها وأحرص على الاحتفاظ بها. ولفرط ما لم أكن أرى فيه إلّا مُرشداً لي، وبقدر ما كان شغفي غيرَ متسامحٍ ولا يرى في رفاقي إلّا أعداءً، كانت إرادةٌ غيورٌ تُجدِّد كلّ يوم قَسَمها بأن تتجاوزهم جميعاً وأن تهزمهم.

هل كان يستشعر هو نفسُه قَدْرَهُ عندي، وهل كان قد شرع يحبّ هذا الهيجان الصّادر عن كينونتي. فأستاذي سرعان ما جعل يُميّزني باستمرار وبطريقة خاصّة، بإبدائه اهتماماً ظاهراً بي. يوجّهني إلى ما أقرأ ويدفع بي، أنا الطّالب

الجديد، بطريقة تكاد تكون غير عادلة، لواجهة المناقشات الجماعية، وغالباً ما كان يسمح لي بالقدوم إلى منزله لنتحادث بألفة. كان عندئذٍ يُمسك في الغالب الأعمّ بأحد الكتب الموضوعة لصق الجدار، وبصوته الرّنان الذي كان يُصبح أثناء الحديث أكثر وضوحاً وأعلى نبراً، يشرع في قراءة مقاطع شعرية أو درامية، أو في شرح قضايا خلافية. كنت قد تعلّمت خلال أسبُوعَيْ الافتتان هذين من جوهر الفنّ أكثر مما تعلّمته منه في تسعة عشر عاماً. كنّا ننعم بالوحدة خلال هذه السّاعة التي كانت تمرّ عليّ خاطفة. كان الباب يُطرق برفق ما أن تحلّ الثامنة، ويكون الطّارق هو زوجته التي تدعوه للعشاء. لكنّها ما عادت تلج الغرفة، مُمتثلة على ما يبدو إلى توجيهه بأن لا تقطع علينا حديثنا.

هكذا انصرمت أيّامٌ خمسةَ عشر؛ أيّامُ بداية صيفٍ مُترعةٌ وبالغةُ الدّفء، حتى انكسرت فيّ، ذات صباحٍ، قُدرتي على العمل، وكأنّها نابضٌ شُدَّ بقوة. كان أستاذي قد حذّرني سلفاً قائلاً إنّ علي ألّا أدفع بجهدي إلى طرفه، وأن آخذ من وقت إلى آخر يومَ راحة وأن أذهب إلى الأرياف. وها توقّعه يتحقّق فجأة. أفقت خاملاً بعد نوم مضطرب وجعلت الحروف، كلّما هممت بالقراءة، تتراقص أمامي وكأنّها رؤوس دبابيس. ولكوني مُخلصاً كالعبد، أنفّذ أدنى كلام يصدر عن أستاذي، قدّرت على الفور أن أُطيع وأن آخذ يوم استراحة حرّاً وسط

هذه الأيّام المتعطّشة للمعرفة. قمت لأوّل مرّة بزيارة المدينةِ القديمةِ في جزءٍ منها. تسلّقت ما يقرب من مئة درجة لبرج الجرس، فقط كي أجعل الدّم يجري في عروق جسدي، ومن أعلاه اكتشفت غديراً مُحاطاً بالخضرة. وبوصفي رجلاً شمالياً مولوداً على شاطئ البحر، كنت أعشق السّباحة. ولوجودي تحديداً هنا، أعلى البرج الذي تُرسل نحوه البراري المرقّشة وميضاً وكأنّها بلدٌ للبحيراتِ الخضراء، استبدّت بي، على حين غفلة، رغبة لا تُقاوم، كأنّها قادمة مع الرّيح من بلدي؛ رغبة أن أغطس في العنصر النّفيس. بعد الظّهر، ما إن عثرت على مكان المسبح، وبعد أن عُمتُ مسافةً، حتى جعل جسدي يشعر براحته. استعادت عضلاتي ليونةً وتمدّداً افتقدتهما أسابيع، وأخذت الشّمس والرّيح تعبثان على جلدي العاري وتجعلان الفتى المتحمّس الذي كنته من قبل يُولد من جديد بداخلي، خلال نصف ساعة، بما كان يتّسم به من اشتباكات مع رفاقه، والذي كان يُخاطر بحياته من أجل حماقة يقترفها. نسيت لحظتها كلّ شيء عن الكتب وعن العلم، مُنقطعاً للتمدّد وللتنفّض. وبصحبة هذا العفريت الخاصّ بي، والذي استعدته بفضل شغف أهملته زمناً طويلاً، استغرقت ساعتَين وسط العنصر الثّمين الذي عثرت عليه من جديد، فارتميت من على المقفز ثلاثين مرّة ربّما، ساعياً للتخلّص بهذا التمرين من الشحن الزائد لقوتي. كنت قد قطعت البُحيرة مرّتين ولم يفتر هياجي بعد. أضرِبُ وأهتزُّ بكلّ عضلاتي المشدودة، باحثاً

حولي عن أيّ فعل جديد أستطيع القيام به، مُتلهّفاً لاقتراف شيء قوي وجريء وطائش.

وها هو ذا المقفز يُصوّت، في الجهة المقابلة، في مسبح النّساء، فأستشعر وجيبَ قفزةٍ قوية ينتشر مُرتعشاً حتّى يصل إليّ، وقد ارتفع، في الأوان نفسه، جسدُ امرأة رشيقة جعلته القفزة يأخذ شكل هلال، أو كأنّه سيف معقوف، ثم ينزل مستقيماً إلى الماء والرأس في المقدّمة. حَفَرَ غطسُها في الماء، لحظاتٍ، زوبعةً مُصطخبة يعلوها زبد أبيض، ثمّ عاد الجسد المشدود للظّهور على وجه الماء وتوجّه بضربات قويّة من الذراعين نحو الجزيرة الواقعة وسط البحيرة. (أتبعها! ألحق بها!) وفي لحظةٍ حفّز حبّ الرياضة عضلاتي، فألقيت بنفسي في الماء على الفور، وبتشغيل كتفيّ وجدتُني أسبح في أثرها، مُسرّعاً باستمرار من إيقاعي. لكنّ السبّاحة، عندما لاحظت أنّ أحداً يسبح في أثرها، وبما أنّها كانت مثلي تُجيد العوم، فقد استثمرت تقدّمها عليّ وعاجت بحذق، مارّة أمام الجزيرة، وانتهجت بسرعة كبيرة طريق العودة. فطِنتُ على الفور لنيتها، فمضيت بدوري يميناً سابحاً بهمّة حتى أنّ كفّي كانت تجد نفسها في مَخرِها، عندما تستطيل، ولم يعد يفصل بيننا سوى ذراع واحدة. فجأة، وبالتجائها إلى حيلة جريئة، غطست الهاربةُ لتعود للظّهور لحظة بعد ذلك، تماماً خلف خطّ حوض النّساء، مانعة إيّاي من مواصلة تعقّبها. صعَدَت السُّلّم منتصرةً يسيل الماء على جسدها. وجدَتْ نفسها

مُضطرّة، لحظة، للتوقف، كفّها على صدرها، مُنقطعة الأنفاس على ما بدا. لكنّها التفتت بعد ذلك، وعندما رأتني هامداً عند الفاصل بين المسبحَين ضحكت ناظرة إليّ، بإهاب المنتصرة، تبرق أسنانها. لم أستطع تبيُّن مُحيّاها تحت قبّعة العوم وضدّ وهج الشّمس. وحدها ضحكتها انطلقت واضحة وساخرة في اتّجاه المهزوم.

كنت في الأوان نفسه مُنزعجاً وسعيداً. شعرت لأوّل مرّة منذ إقامتي السّابقة في برلين أنّ نظرةَ مجاملةٍ من امرأة تقع عليّ. فهل أكون ها هنا، ربّما، موعوداً بمغامرة؟ التحقت بثلاث ضربات من ذراعيّ بمسبح الرّجال وارتديت بسرعة ملابسي على جلدي الذي لا يزال مبلّلاً، حتّى أصل على الفور إلى مخرج المسبح مترقّباً مَقدَمها. اضطررت للانتظار عشر دقائق، ثمّ (سهل تعرّفها من شكلها الرّقيق والفتيّ) أقبل خصمي المعتزّ بنفسه بخطوات خفيفة، أصبحت أكثر خفّة ما أن رأتني، وفي نيّتها، لا شكّ، أن لا تهبني فرصة الاقتراب منها. تقدّمت بعضلاتها التي بدت أكثر ليونة ممّا كانته أثناء العوم. كانت كلّ مفاصلها تستجيب بعصبية لهذا الجسد الرقيق الشبيه بجسد مراهقة، بل ربما كان أكثر رقّة من ذلك. أجهدت نفسي حقّاً في اللّحاق بها دون أن تنتبه إلي، لأنّها كانت منطلقة كالسّهم لتتحاشاني. ثمّ أفلحتُ في الأخير. عند انعطافة في الطّريق تقدّمت بسدادٍ مُنحرفاً، ومن بعيد رفعت قبّعتي كما يفعل الطّلبة وسألتها، قبل حتى أن أنظر إليها وجهاً

لوجه، ما إن كان بإمكاني مُصاحبتها. نظرت إليّ نظرة ساخرة بجانب عينيها وأجابتني، دون أن تبطئ خطوها، بسخرية تكاد تكون مُستفزّة: «لم لا هذا إن لم أكن أمشي بسرعة لا تقدر عليها أنت، فأنا مستعجلة جدّاً». شجّعتني تلقائية جوابها فأصبحت أكثر إلحاحاً. طرحت عليها ما يقرب من اثني عشر سؤالاً حميماً، وكانت أسئلتي في غالبيتها غبية، غير أنّها أجابت عنها برحابة صدر وبروح حرّة أبهرتني إلى درجة أنّني تبلبلت من ذلك أكثر ممّا تشجّعت لمواصلة السّعي لتحقيق نواياي. ذلك أنّ كلمة سرٍّ ولوج مثل هذه المغامرات في برلين كانت هي المقاومة والتهكّم بدل حوار بهذه الصّراحة، يُجرَى أثناء السّير. وهكذا شعرت للمرّة الثّانية أنّني هنا أُهاجم خصماً أقوى منّي بكثير.

بيد أنّ الأدهى لم يكن قد حصل بعدُ. ذلك أنّني عندما ضاعفت جرأتي وسألتها بإلحاح عن مكان إقامتها، التفتت نحوي عينان بلون الفستق، مُترعتان اعتزازاً بالنّفس، ولمعتا، بينما لم تعد هي تقدر على حبس ضحكتها: «في جوارك المباشر». ثبّتُّ نظري فيها مشدوهاً. التفتت عيناها مرّة ثانية نحوي كي ترى إن كان سهم بارثيا(1) قد أصاب هدفه، وكان

---

(1) سهم بارثيا (La flèche du Parthe)، نسبة إلى سلالةِ بارثية أو فرثية التي أقامت إمبراطورية ببلاد فارس القديمة (قبل الميلاد). والعبارة هي كناية تُحيل على المحاربين البارثيين الذين كانوا يتظاهرون بالهروب من المعركة فيتبعهم خصومهم، لكنّهم ينقلبون على حين غفلة ويُطلقون سهامهم بقوّة في اتّجاه مُطارديهم. -المترجم-

قد اخترق حقّاً حنجرتي، فوُضع حدٌّ على الفور لهذه الوقاحة التي كنت أتّصف بها في برلين. تمتمت بصوت مفتقر للثّقة وبما يُشبه التّواضع المبالغ فيه سائلاً إيّاها إن كان لا يُزعجها أن أُرافقها. «البتّة»، أجابت متبسّمة من جديد، «لا يفصلنا عن المسكن سوى شارعين ويمكننا قطعُهما معاً». سمعت صوت دمي، في هذه اللّحظة، يئزّ في أذني، وكنت أجد صعوبة بالغة في المشي قدماً. لكن ما حيلتي؟ إن غادرتها الآن سيُعد ذلك إهانةً أشدّ من الأولى، فاضطررت إذاً أن أمشي برفقتها حتّى المنزل الذي أقطنه. عندئذٍ توقّفت فجأة ومدّت لي كفّها قائلة بلا مُبالاة: «شكراً على مرافقتك لي. ستأتي هذا المساء على الساعة السادسة لتلتقي بزوجي، أليس كذلك؟».

من المفروض أن لوني كان قد أصبح عندئذٍ قرمزياً، لكن قبل أن أقول أيّ شيء، كانت هي قد تسلّقت السُّلّم بسرعة فظللت ثمّة بلا حراك مرعوباً ومفكّراً في الكلمات البلهاء التي كنت قد سمحت لنفسي بالتّلفّظ بها بغباء وبوقاحة. كنت قد دعوتها، بإهاب المتبجّح الغبيّ، إلى نزهة مفتوحة وكأنّها ليست سوى خياطة بسيطة. وكنت أطريتُ على جسدها بطريقة مُبتذلة بلهاء، كما كنت قد أفرغت عليها اللّازمة العاطفية الخاصّة بالطّالب الوحداني. كنت أشعر بنفسي مريضاً من العار، لشدّة ما كان غثياني من نفسي يخنقني. وها هي ذي إذاً تنصرف ضاحكة، شديدة الاعتزاز بنفسها، لتلتقي بزوجها ولتخبره بحماقاتي؛ هو الذي أعتبرُ كلّ حكم له علي أغلى من

حكم كلّ النّاس أجمعين؛ هو الذي يبدو لي ظهوري في عينيه بمظهر المثير للشّفقة أشدَّ إيلاماً من أن أُجلد عارياً في ساحة عمومية.

قضيت ساعات مُرعبة في انتظار المساء. تصوّرت ألف شكل للطريقة التي سيستقبلني بها مع بسمته الرقيقة الساخرة. آه! أنا كنت على علم بذلك، فهو سيّد فنّ الكلام التهكّمي ويعرف كيف يشحذ جملةً حاذقة تخزّك وتحرق حتى دمك. حتى المحكوم بالإعدام لم يكن ممكناً أن يصعد منصة المقصلة أشدّ رعباً مني وأنا أتسلّق السُّلّم، فما كدت ألجُ مكتبه، متحكّماً بصعوبة في دموعي، حتى تضاعف اضطرابي، فقد اعتقدت أنّني قد سمعت حقّاً، في الغرفة المجاورة، هسهسة فستانِ امرأة. لا شكّ أنّها توجد هنا مراقِبةً، تلك المتكبّرةُ، وهي تقتات على اضطرابي، مُبتهجة باندحار الثّرثار الشّاب. أتى أستاذي، أخيراً. «لكن ما بك؟» سألني بتعاطف. «أنت ممتقع اليوم». ادّعيت أنْ لا، مُنتظراً الضّربة القاضية. لكن الإعدام المنتظر لم يحصل. تحدّث بالطريقة المعتادة عن أمور أدبية. وقد سَبَرتُ كلماته بعناية قلِقاً، فاتّضح لي أنّ أيّاً منها لم يكن يحمل في طياته أيّ تلميح أو أدنى استهزاء، فعلمتُ، مشدوهاً في البدء ثم سعيداً للغاية، بأنّها لم تُخبره بأيّ شيء ممّا دار بيننا.

طُرِق البابُ على الساعة السابعة، فغادرتُ. من جديد أضحى قلبي من رصاصٍ، في صدري. عندما كنت خلف

الباب، مرّت هي فحييتها فارتسمت بسمة خفيفة في ناظريها، ودار دمي في عروقي متدفّقاً، ففسّرت هذا العفو على أنّه وعدٌ بالاستمرار في التزام الصّمت.

انطلاقاً من هذا اليوم أصبحت لي طريقة جديدة في ملاحظة الأشياء. فإلى حدود هذه اللحظة، كان إجلالي السّاذج والطّفولي يُعلي من شأن أستاذي الذي كنت أعشقه وكأنّه عبقري قادم من كوكب آخر، فكنت أُغفل تماماً أن أنتبه إلى حياته الخاصّة، إلى حياته الأرضية. كنت، مع هذه المبالغة التي تُميز كلّ حماسٍ حقيقيّ، قد نظّفت وجوده من كلّ الشؤون اليومية لعالمنا النمطي والمقعَّد. وكما يحصل مثلاً لشخص يُحبّ لأوّل مرّة فلا يجرؤ أن يُعرّي في خياله فتاته التي يعبدها ولا أن ينظر إليها بطريقة عادية على أنّها تُشبه الآلاف من الفتيات الأخريات اللائي يلبسن فساتين؛ كنت أنا لا أجرؤ على أن أدسّ نظرةً في وجوده الخاصّ به. لم أكن أرى فيه دائماً إلّا كائناً سامياً مُتخلّصاً من كلّ الابتذال الماديّ، بوصفه رسولاً للكلمة ومحملاً للفكر الإبداعي. بيد أنّني الآن، وقد ألقت هذه المغامرة التراجيدية بزوجته في طريقي، لم أعد قادراً على منع نفسي من أن أُلاحظ عن قرب وجوده العائلي والزوجي. على الرغم من إرادتي، فتّحَ عينَيَّ فضولُ المراقب القلق الذي صرته، وما كادت هذه النّظرة المتطفّلة تُولد حتّى تبلبلت على الفور، لأنّ وجود هذا الرجل،

داخل مسكنه الخاصّ، كان غريباً ويُشكّل ما يُشبه لغزاً عصياً على الفهم. بعد زمن قليل من هذا اللقاء، وعندما استُدعيت لأوّل مرّة إلى مائدته ورأيته، ليس بمفرده وإنما مصحوباً بزوجته، ساورني شكّ فريد من نوعه في أنّ حياتهما كانت شديدة الغرابة. وكلّما كنت أزداد ولوجاً في حميمية هذا البيت، كان هذا الإحساس يُصبح أشدّ اضطراباً فيّ، ليس لأنّ توتّراً أو عدمَ اتّفاق كان ينشأ بينهما مُعبَّراً عنه بكلمات أو بحركات؛ كلا، بل على العكس من ذلك، كان العدم هو ما يرين، والغياب الكامل لكلّ توتُّر، سواء أكان سلبياً أو إيجابياً، هو ما كان يلفّهما بجوّ غريب وغير قابل للاختراق. كان هدوء العواطف الثقيلُ والعاصفُ هو الذي يُحيل الجوّ أكثر ضغطاً من اندلاع خصام أو من شراراتِ حقدٍ دفين. لا شيء كان يشي، ظاهرياً، بالغضب أو التوتُّر، ووحدها المسافة التي تفصل بينهما، داخلياً، هي التي كانت تُستَشعَر بقوّة أكثر فأكثر؛ ذلك أنّ الأسئلة والأجوبة في محادثاتهما النادرة كانت تقتصر، إن جاز التعبير بهذه الطريقة، على أن تتلامس بسرعة بأطراف الأصابع. لم تكن تظهر بينهما مودّة قطّ، الكفّ في الكفّ، وحتى معي أنا، أثناء الأكل، كان يتحدّث بانزعاج وبتردّد. وأحياناً، لما كنّا ننخرط في الحديث عن الدراسة، كانت المحادثة تتجمّد وتتركّز في كتلة صمتٍ ضخمة، فلا يقدر أحد منّا على قطعه فيضغط بردُه الثّقيل بعد ذلك على روحي ساعات كاملة.

إنّ ما كان يُرعبني خاصّة هو صمته المطلق. هذا الرّجل المنفتح وذو النزوع الخيّرة، لم يكن له أيُّ صديق. وحدهم تلامذته كانوا مجتمعه وعزاءه، ولم يكن يجمعه بزملائه في الجامعة سوى علاقات الاحترام المتبادل. لم يكن يذهب في اتّجاه المجتمع، وغالباً ما كان يمكث في منزله لا يُغادره النّهار كلّه، خلا أن يقطع المئة خطوة التي تفصل بيته عن الجامعة. كان يُراكم كلّ شيء في داخله، بصمت، ودون أن يُقاسِمَهُ النّاسَ أو يُفرّغه في الكتابة. وقد فهمت عندئذٍ أيضاً الطّابع البركاني لحديثه والانبعاث القويّ لخطاباته وسط طلّابه؛ كان كيانه إذاً هو الذي يُفضي بأسراره بعد قضاء أيّام في المراكمة. كانت الأفكار كلّها التي يحملها خرساء بداخله، هي التي تتسارع بهذا الاندفاع الذي يُسمّيه الفرسانُ بطريقة جميلة عند الجياد: الاندفاع نحو الإسطبل. كانت أفكاره المتدفّقة تخرق بحماس مِغلاق الصّمت، مُنطلقة في هذه المطاردة ذات الطابع اللفظي.

كان نادراً ما يتحدَّث في بيته، وأقلّ من كان يُحادثه زوجته. وقد تبيّنت أنا نفسي، رغم حداثة سنّي، مُفاجأً وقلقاً وشبه خَجِلٍ، أنّ هناك ظلّاً يُحلّق بين هذين الكائنين، ظلّاً طافياً ودائم الحضور، منسوجاً من مادّة لا يُدرك كنهها، لكنّها كانت، مع ذلك، تعزلهما بالكلّية أحدهما عن الآخر، فاستشعرت لأوّل مرّة جسامةَ سُمكِ هذا السّر الذي يُقنّع واجهةَ زواجهما. لم تكن زوجته تجرؤ قط على ولوج مكتبه

دون أن تُستدعى إليه، وكأنّ نجمة خُماسية[1] سحرية قد سُطرت على العتبة، ما يعني بوضوح أنّها كانت مُقصاةً بشكل كامل من حياته الفكرية. لم يكن أستاذي يسمح قط بأن نتحادث عن مشاريعه وأعماله عندما تكون حاضرة معنا. وكنت أشعر حقّاً بألم واخز من الطّريقة التي يقطع بها كلامه المتحمّس ما أن تدخل زوجته. وما كان يكسو سلوكَه هذا من إهانة واحتقار واضحين، لم يكن يعمل على إخفائه بأيّ قدر من الكياسة، بل على العكس من ذلك، كان يُلقي، بجفاف ومجافاة، بعيداً عنه، كلَّ علامة اهتمام بها، لكنّها كانت تبدو غير منتبهة إلى هذه الإهانة، أو ربّما كانت قد اعتادت عليها. كانت، بما تملكه من حماس الشّابة الممتلئة باعتزازها بنفسها، المرنة والخفيفة والرشيقة والمتمتّعة بعضلات قوية، تصعد السُّلّم وتنزله كمثل سهم، لكنّها كانت تجدُ لديها باستمرار وقتاً فائضاً فتذهب إلى المسرح ولا تُهمل أي نشاط رياضي. لكنّ هذه المرأة التي يدنو عمرها من الخامسة والثلاثين كانت، بالمقابل، مُجرّدة من أيّ انجذاب للكتب ولمسكنِها ولكلّ ما يُؤدّي إلى الوحدة

---

(1) تلميح إلى فاوست لغوته (الجزء الأوّل، مشهد «مكتب البحث والدّراسة»)، حيث حالت هذه العلامة الباطنية الخفية دون خروج «ميفيستو» [مفستوفيليس (Méphistophélès)، الكائن الميتافيزيقي الذي تعاقد معه الدكتور فاوست، في مأساة غوته، كي يقوده في عالم الملذّات الحسية] وجعلت منه «سجيناً» لفاوست.

والسّكون والتأمُّل. كانت تبدو في حالة جيّدة فقط عندما (مُدندنةً دائماً ومحبّةً للضّحك ومستعدّةً كلّ حين لمحادثة مُشاغبة) يكون بإمكانها أن تُحرّر أطرافها في الرقص والسباحة والعدو وفي أي تمرين رياضي عنيف. لم يكن حديثها معي أنا جادّاً على الإطلاق. كانت تُداعبني باستمرار وكأنّني غِرّ صغير، وكانت ترى فيّ على الأكثر شريكاً يصلح لامتحانِ قوّةٍ جريء. كانت طبيعتها الخفيفة والمتّسمة بميسمٍ حسّي ظاهر تُشكّل تعارضاً مُثيراً للحيرة مع طريقة عيش زوجها الكئيب والمنكمش على نفسه، لا يُلهب حماسه إلّا فكرُه، حتى أنّني كنت أتساءل باندهاش يتجدّد باستمرار عمَّ كان جمع بين هذين المزاجين المختلفين جذرياً. والحقّ أنّ هذا التّعارض بينهما كان في صالحي. عندما كنت أُحادثها، بعد الفراغ من عمل مُضنٍ، كان يبدو لي وكأنّ خوذة ثقيلة قد أُزيحت عن جبهتي. كان كلّ شيء يستعيد لونه المعتاد وطبيعته الأرضية، بعد شطحات فكرية مُتحمّسة. كانت المؤانَسَة المَاتِعَةُ تأخذ في المطالبة بحقّها بابتهاج فيأتي الضّحك هكذا بقوّة، بعد أن أكون قد نسيته في حضرته الكئيبة، ليُخفّف من غلواء ضغط العمل الثقافي. استتبَّ بيني وبينها ضربٌ من الروح الرفاقية الطفولية. وبما أنّنا لم نكن نتحدّث دائماً، بتلقائية، إلّا عن مواضيع عادية، عندما نكون في طريقنا مثلاً إلى المسرح، فإنّ علاقتنا لم يكن يحفّ بها أيُّ ضربٍ من أضرُب الخطر. شيء واحد كان يُعكّر علينا

بقسوة خلوَّ بالنا أثناء مناقشاتنا، ويملأني حيرة؛ عندما يُذكر اسم زوجها كانت تُقابل فضولي الواضح بصمت غاضب، أو يكتسي وجهُها بسمةً مُقنَّعة، بطريقة غريبة، عندما أشرع أنا بالحديث عنه بحماس. لكنّ شفتيها كانتا تظلّان مُطبقَتَين، بطريقة لا مُبالية، مُبعِدةً هذا الرّجل عن حياتها، بنفس الموقف العنيف الذي كان هو يُقصيها به من حياته. غير أنّهما يعيشان، مع ذلك، معاً منذ خمس عشرة سنة في ظلّ سقف واحد، بصمت ودون ضجيج.

لكن بقدر ما كان هذا اللّغز غير قابل للاختراق، كانت جاذبيته تزداد قوّة وتُذكي تلهّفي المشغوف. كان ثمّة ظلٌّ، قناعٌ أشعر به يرتعش، قريباً مني بقدر يدعو إلى الاستغراب، يَبِينُ من كلّ كلام يُلفظ، وكنت أعتقد مراراً أنّني أُمسك به، هذا النّسيج المحيِّر، لكنّه لا يفتأ أن ينزلق فوراً من بين أصابعي، ليعود لحظة بعد ذلك مُوَشوِشاً بالقرب مني، لكنّه يتمنّع عن أن يصير كلمة ملموسة وشكلاً نابضاً. والحال أنّه ليس ثمّة ما يُحير شابّاً ويُثيره أكثر من لعبة الفرَضِيات العائمة التي تُصيبه بالتوتُّر. يرى الخيال، الذي عادة ما يقضي وقته في التسكّع مُتكاسلاً، أمامه طريدةً للاصطياد، وها هو ذا يتحمّس بلذّته، الجديدة كلّية، في تعقّب هذه الطّريدة. كانت تولد، في مثل هذه الأوقات، معانٍ جديدةٌ، فيّ أنا الذي لم أكن حتى تلك اللّحظة سوى فتى مخدَّر، مُتمتّع بسمع ذي حدّة خارقة للعادة، يرصد بدقّة أدنى صوت، وبنظرٍ نمّام فحّاص حادّ وحريص،

وبفضول متأجّج يُقلّب أعماق العتمة؛ فكانت أعصابي تتمدّد حتّى الشّعور بالألم، مُستثارة باستمرار بملامسة شعور مسبق لا يتجسّد أبداً في انطباع ملموس.

غير أنّني لم أكن أؤاخذ فضولي المتحمّس والذي لا يكفّ عن التّنقيب، لأنّه فضول طاهر. هذه العاطفة التي كانت تُثير بهذه الطريقة حواسّي كلّها لم تكن مُتطفّلةً تتلذّذُ بما ترى، وتشتهي أن تكتشف، غدراً، لدى كائن سامٍ بعض الخسّة الإنسانية. لا، كان فضولي، على العكس من ذلك، يتسربل بقلق واضح وبشفقة محيِّرة ومتردِّدة، مُخمّناً بضيق وتشوّشٍ معاناة ما لدى هذا الرّجل الصّموت.. ذلك أنّني كلّما كنت أزداد غوصاً في حياته، كان إحساسي بالضّغط يزداد بقدر ملموس بسبب هذا الظلّ الذي كان قد وضع علاماته سلفاً على وجه أستاذي، وكأنّه كآبة نبيلة. أصفها بالنّبيلة لأنها كانت تُتَجاوزُ بنبل، فلا تنحطّ حتّى تصير مزاجاً عكراً مقيتاً أو غضباً غير متحكَّم فيه. وإذا كان قد اجتذبني منذ اللحظة الأولى، أنا الغريب، بالطابع المشرق لكلامه المتفجّر، فإنّني الآن، وقد أصبحت قريبَه، أشعر أنّني متأثّر بعمق أكبر بقلّة كلامه وبسحابة الحزن هذه التي تعبر جبهته. لا شيء يَمَسّ، بهذه القوة، ذهنَ مراهق، أكثرَ من معاناة شخصٍ سامٍ. إنّ أقنعة المعاناة الكونية التي يمثّلها تمثال المفكِّر لمايكل أنجلو، وهو ينظر بعينَين ثابتتَين إلى هاويته الذّاتية، وفمُ بيتهوفن المتغضّن، لَتُثير بعنف حساسيةً لم تستوِ

بعد كما استوى نغمُ موزارت أو النورُ الثّري الذي يلفّ وجوه رسومات ليوناردو. الشباب بوصفه جمالاً في ذاته، ليس في حاجة إلى السّكينة؛ فهو في الانطلاقة المندفعة لقواه الحية، يصبو إلى المأساوي، ويترك نفسه، مُتطوّعاً وبسذاجة، تُمتصّ بالكآبة. هذا هو السّبب في أنّ الشباب يكون متأهِّباً على الدّوام لاقتحام الخطر ومدّ كفّ الأخوّة، ذهنياً، لكلّ معاناة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أقابل فيها وجه شخص يُعاني بحقّ. لم أكن قد عرفت -بوصفي ابناً لأبوين متواضعين، مُربّى في بذخِ ترفٍ بورجوازي- القلقَ إلّا في شكل أقنعة الوجود الأكثر إثارة للسّخرية، والآخذةِ شكل المُعاكسَة والمرتديةِ الفستان الأصفر للرغبة أو المرتبطة بوضاعة المال. بيد أنّ منبع الاعتكار الذي يعتور هذا الوجه هو -لقد استشعرت ذلك على الفور- عامل آخر أكثر قدسية. هذا الإهاب المعتّم قادم لا محالة من أعماق مُظلِمة. كان رأس قلم مُدبّبٌ قادمٌ من الدّاخل هو الذي رسم هنا هذه التجاعيد وهذه الشّقوق، في هذين الخدّين المرتخيين قبل الأوان. أحياناً، عندما كنت ألجُ مكتبه (مصحوباً دائماً بخوف طفل يقترب من منزل يسكنه الجنّ) لم يكن يسمعني أطرق الباب، مُستغرقاً في تأمّلاته، حتى أنني كنت أجد نفسي فجأة، خجلاً ومضطرباً، أمام هذا الرّجل الهائم في أفكاره، فيبدو لي أنّه لا يوجد أمامي سوى قناعه الجسدي -فاغنر مُرتدياً ملابس

فاوست[1]- بينما يكون ذهنه تائهاً في الأودية المُلغزة، وسط ليالي فالبورجيس[2] الرّهيبة. كانت حواسّه تصير، في هذه اللحظات، كلِيلَةً تماماً فلا يسمع اقترابَ الخطوات ولا تحيةً تُلقى بخجل. وعندما يعود إلى رشده فجأة، بعد ذلك، كان يقف توّاً، فتتهافت كلماته مُحاوِلة طمس انزعاجه. يجعل يمشي ويجيء، محاولاً بطرحه أسئلة أن يَصرِف عنه نظرتي الحائرة، لكنّ جبهته كانت تبقى معتّمة لمدة طويلة، ووحدها محادثتنا عندما تحتدّ كانت قادرة على تبديد الغيوم المتراكمة في روحه.

كان يشعر على الأرجح بالبلبلة التي يُحدثها فيّ مظهره. كان يُحسّ بذلك ربّما من عينَيّ ومن كفّي الحائرتَين. من المرجّح أنه كان يُخمّن، مثلاً، أنّ دُعاءً غير ظاهر كان يطفو على شفتيّ طالباً ثقته، أو ربّما كان بإمكانه أن يتعرّف في موقفي المتلمس إلى رغبتي المتلهّفة والسّرية في أن أحمل على كاهلي وفي داخلي ألمَه. كان بالتأكيد يلمح ذلك، لأنّه كان يقطع دون سابق إنذار المحادثة المحتدّة وينظر إليّ بتأثر. حتى

---

(1) إنّه مُساعد الدّكتور فاوست. وزفايغ يلتجئ هنا إلى الدّعابة، لأنّ ميفيستو، في مسرحية غوته، هو الذي يتقنّع في صفة فاوست كي يُقدّم، بطريقته المعهودة، نصائحه للتّلميذ الجديد.

(2) اللّيلة الفاصلة ما بين 30 أبريل وفاتح مايو، حيث تتواعد المشعوذات على اللقّاء في بلوكسبيرغ (Blocksberg) (أو بروكن (Brocken))، في السّهل النّباتيّ لهارز (Harz). وقد وردت الإشارة إليها في جزأي فاوست معاً.

نظرته المحمّلة بدفء فريد والمعتّمة بامتلائه الذاتي، كانت تشملني في كلّيتي. عندئذٍ كان يُمسك بكفّي ويحتفظ بها مدّة طويلة بين يديه بأعصاب غير هادئة، وأبقى أنا مُنتظراً دائماً: الآن، الآن، الآن سيُحادثني. لكن، بدلاً من ذلك، كانت حركة مُفاجئة هي التي تصدر عنه، بل حتى كلامٌ باردٌ لا روية فيه وساخر طرّاً. هو الذي كان التّجسيدَ الفعلي للحماسة، والذي أذكاها فيّ أنا أيضاً ورعاها، يتخلّى عنها فجأة وكأنّها خطأ وجب مسحه من واجب مدرسيّ مُحرَّر بطريقة سيئة. وكلما كان يرى روحي مفتوحة ورانية إلى ثقته، كان يزداد تلفّظاً بجفاف بكلام مُثلّج، من مثل: «أنت لا تفهم هذا!» أو «دعْ عنك هذه المبالغات!»، وهو كلام كان شديد الأثر علي ويدفعني نحو اليأس. كم عانيت بسبب هذا الرجل الشديد الحماس، الذي يُرسل بارقة بعد بارقة، عابراً فجأة من الدّفء إلى البرود، والذي كان يُؤجّج حماستي بطريقة لا واعية كي يعود توّاً إلى تثليجي، ويُؤجج فيّ بحماسته حماستي، ثم يلوّح فجأة بسوطه بإبدائه لملاحظة ساخرة! أجل، حصل لدي الشّعور القاسي بأنّني كلّما ازددت دنوّاً منه ازداد إبعاداً لي عنه بقسوة وحتى بقلق. لا شيء كان يقتضي ولوج سرّه أو يقدر على ذلك.

ذلك أنّ سرّاً ما -كنت أَغدو أكثر اقتناعاً بذلك فأكثر- غريباً ومُقلقاً كان يأوي في أعمق أعماق هذا الكائن المُدهش. كنت أستشعر أمراً ما خفياً لديه، من الطّريقة

المتفرّدة التي كان نظره يتراجع بها، مُتقهقراً بخوف بعد أن يكون قد تقدّم بحمية، وبعدما أكون أنا قد استسلمت له عرفاناً بالجميل. كنت أستشعر ذلك من الانثناء المرير لشفتَي زوجته ومن التحفّظ البارد والفريد لسكان المدينة الذين ينظرون إليك بما يُشبه السّخطَ عندما تقول عنه كلاماً طيّباً. كان بالإمكان استشعار ذلك من ألف شيء غريب ومن مئة حالةِ اضطرابٍ مُفاجئة. ويا لها من حيرة أن تعتقد أنّك قد ولجت سلفاً حميمية حياة مثل حياته، فتبقى مع ذلك تدور فيها كما في حلقة مفرغة، يعمّ بك الالتباس، جاهلاً بالطّريق التي تقود إلى جذره وإلى قلبه!

لكنّ ما كان غير قابل للتّفسير، خاصّة، ومثيراً لغضبي، هو هروبه المفاجئ. ذات يوم، عند وصولي إلى الكلية، وجدت إعلاناً ينصّ على أنّ دروسه ستنقطع يومين. بدا أنّ الطّلبة لم يستغربوا ذلك، لكنّني أنا الذي كنت معه بالأمس فقط، وجدتُني أعدو إلى مسكنه، مدفوعاً بخشية أن يكون المرض هو ما أقعده. اكتفت زوجته بالتبسُّم بجفاف وهي ترى تأثّري المفضوح بظهوري المتهافت هذا. «يحصل هذا باستمرار»، قالت ببرود غريب، «أنت فقط لم تعتد على ذلك». وبالفعل، فقد علمت من رفاقي أنّه كثيراً ما يختفي هكذا ليلاً، فلا يعتذر أحياناً إلّا بإخطارٍ موجز. وكان طالبٌ قد سبق له أن التقى به في الرّابعة صباحاً في شارع ببرلين، والتقى به آخر في مقهى بمدينة بعيدة. كان ينصرف فجأة كما يقفز سدّاد من فم

قنّينة، ثم يعود بعد ذلك دون أن يستطيع أحدٌ معرفة ما كانت وجهتُه. أثّر فيّ هذا الغياب المفاجئ وكأنّه سقمٌ. قصرت يومَي الغياب هذين على التّيه هنا وهناك، مشغول البال وقلقاً. أصبحت الدّراسة دفعةً واحدة، من دون حضوره المعتاد، فارغة ولا هدف لها. ساورتني افتراضات ملتبسة، يلفّها بعضُ الغيرة، فشعرت حتّى ببعض الكراهية والغضب بسبب هذا الاختفاء الذي تركني، خارجَ حياته الحقيقية، وكأنني متسوّل تحت البرد المثلّج، أنا الذي كنت مع ذلك أتحرّق شوقاً إلى أن أكون طرفاً في هذه الحياة. عبثاً حاولت أن أُقنع نفسي بأنّني مجرّد طالب مُراهق، لا حقّ لي أن أُطالبه بحسابات ولا بتفسيرات، لأنّ طيبته كانت تنفحني من الثّقة مئة مرّة أكثر مما هو مطالبٌ به أستاذٌ في الكلّية بحكم مهنته. لكن العقل لم يكن له أيّ سلطان على شغفي، فأذهب للسّؤال بغباء عمَّ إذا كان قد عاد، إلى أن شعرت بزوجته غاضبة من صنيعي لفرط ما كانت إجاباتها السّلبية قد أضحت أكثر عنفاً فأكثر. كنت أبقى مستيقظاً نصفَ الليل مترقّباً صوت خطوه عندما يعود. وقد طفقت في صبيحة اليوم الموالي أحوم حول الباب، لا جرأة لي على طرح أسئلة. وعندما ولج غرفتي أخيراً، في اليوم الثّالث، على غير انتظار، شعرت بتنفّسي يضيق. كان رعبي بالتّأكيد غير عادٍ كما فهمت على الأقلّ ممّا اكتسى وجهه من مُفاجأة مُنزعجة حاول إخفاءها بطرحه عليّ بضعة أسئلة لا أهمية لها، في حين كان يتفاداني بنظره. كانت تلك أوّل مرّة يتخبّط فيها

حديثنا فتتعثّر الكلمات بعضها ببعض، وبينما كنّا معاً نُجهد نفسينا كي نتفادى كلّ تلميح لغيابه، كان ما لا نقوله تحديداً هو ما يقطع الطّريق أمام كلّ محادثة عادية نُقيمها. عندما انصرف كان الفضول الحارق يلتهب فيّ كمثل شعلة بدأت شيئاً فشيئاً تلتهم نومي وحالات يقظتي.

دام صراعي أسابيعَ من أجل أن أعرف حقيقته وأن أعلم عنها أكثر. كنت أُتابع بعناد الحَفرَ في اتّجاه نواة النّار التي كنت أعتقد أنّني أستشعر وجودها، كمثل بركان، تحت صخرة صمته. أخيراً، وفي ساعة ليست كباقي السّاعات، استطعت للمرّة الأولى أن أضع قدمي في عالمه الدّاخلي. كنت قد بقيت، مرّة أخرى، جالساً في مكتبه حتّى الغروب. فاستخرج حينئذٍ بضعة سونيتات لشكسبير من درجه المقفل. قرأ في البداية بترجمته الخاصّة هذه المحاولات التي بدت وكأنّها تسيل كمثل البرونز المذاب، ثم أنار بطريقة رائعة مضمونها المشفَّر، والذي يبدو ظاهرياً غيرَ قابل للاختراق، حتى أنّني في افتتاني، تولّتني حسرةٌ من أن يكون الكنز المنثور في الكلام الخاطف لهذا الرجل الطّافِح يضيع ولا يصير ملك يمين النّاس أجمعين. وها هي ذي الشّجاعة تأخذني على حين فجأة (من يعرف مصدرها؟) لأن أسأله عن سبب عدم إنهائه المؤلَّفَ الكبير عن تاريخ مسرح الكرة الأرضية. لكنّني ما كدت أتجرّأ على الكلام حتى لاحظت مُرتعباً أنّني قد لمست

لتوّي ودون قصد وبلا مهارة جرحاً دفيناً ومُؤلماً بشكل ظاهر. نهض واستدار ولزم الصّمت طويلاً. بدا وكأنّ المكتب قد امتلأ فجأة بخيوط الغسق وبالصّمت. اقترب منّي في الأخير ونظر في وجهي طويلاً ترتعش شفتاه مرّات قبل أن تنفرجا قليلاً، ثمّ خرج الاعتراف المؤلم: «أنا لا أستطيع إنجاز أعمال كبيرة. انتهى الأمر. الشّباب وحده قادر على الاضطلاع بمشاريع جريئة مثل هذه. أنا لم أعد الآن قادراً على المثابرة. لقد أصبحتُ (لماذا أخفي ذلك؟) رجلاً بنَفَسٍ قصير فلا أقدر على مواصلة العمل مدّة طويلة. كنت أتمتّع قديماً بقوّة أكبر، لكنّني أفتقد إليها اليوم. أنا لا أقدر إلّا على الكلام. عندما أتكلّم أُلهَم أحياناً فيرفعني أمرٌ ما فوق ذاتي، لكن أن أشتغل جالساً، مشمولاً بالصّمت، وحيداً دائماً، وحيداً دائماً، فذلك ما لم أعد أقدر عليه».

بلبلني موقفه المتردّد فرجوته، في اندفاعة عفوية عميقة، أن يُفكّر في أن يُمسك في يده بقوّة ما يُوزّعه يومياً علينا بكفّ لا مُبالية، وأن لا يكتفي بالعطاء وإنّما أن يحتفظ بثرواته الخاصّة في كتب. «ما عدت أقدر على الكتابة»، قال من جديد بنبر مُتعب. «أنا ما عُدتُ أتمتّع بالتّركيز الضّروريّ. - حسنٌ، املِ إذاً!» ثمّ ألححت، مأخوذاً بهذه الفكرة، فقلت شبه متوسّل: «ليس عليك إلّا أن تُملي علي. جرّب إذاً، ابدأ قليلاً. ثمّ إنّك لن تستطيع، أنت نفسك، أن تتوقّف. جرّب الإملاء أرجوك، من أجل ما تحمله لي من حبّ».

رفع بصره مُندهشاً في البداية ثمّ مُفكّراً. بدا وكأنّ هذه الفكرة استرعت اهتمامه. «من أجل ما أحمله لك من حبّ؟»، قال مُعقّباً، «أتعتقد حقّاً أنه لا يزال بإمكان شخص أن يبتهج برؤية شيخ مثلي يُنجز شيئاً؟». شعرت سلفاً أنّه قد بدأ يستسلم رغم تردّده. شعرت بذلك من نظرته المغلقة التي كانت قبل قليل لا تزال مُترعة غيوماً فصارت الآن مُخفّفة بأمل دافئ، وقد شرَعَت تتمدّد شيئاً فشيئاً عاثرةً في ذاتها على ما يجعلها تلمع. «أتعتقد بذلك حقّاً؟» عقّب. كنت أشعر أنّ إرادته تستعدّ لأن تقطف داخلياً هذا الاقتراح، فصاح فجأة: «حسنٌ، لنجرّب. الشّباب على حقّ دائماً ومن الحكمة الإنصات إليه». بدا وكأنّ الانفجار المتوحّش لفرحي وصرخةَ انتصاري أذكيا حماسته، فبدأ يمشي ويجيء بخطوات واسعة، بما يُشبه حيوية شابّ، فاتّفقنا على أن نشتغل كلّ مساء، في التّاسعة، فور الفراغ من العشاء، مُبتدئين بساعة كلّ مرّة، فشرعنا في حصص الإملاء انطلاقاً من اليوم التالي.

آه! كيف يُمكنني وصف تلك اللّحظات! كنت أنتظرها بياضَ يومي، وكان يستولي علي، منذ ما بعد منتصف النهار اضطراب محموم ومُثمل يُكهرب حواسّي المتلهّفة. كنت أتحمّل بصعوبة كبيرة انصرام السّاعات إلى أن يأتي المساء. كنّا نذهب ما أن نفرغ من الأكل إلى مكتبه، فأجلس إلى الطّاولة مُديراً له ظهري، بينما يبقى هو يحوم في المكتب بخطوات متعثّرة، إلى أن تحين اللّحظة التي يتجمّع فيها

الإيقاع بداخله، إن صحّ التّعبير بهذه الطّريقة، فيُؤذِن ارتفاعُ صوته بالبداية. ذلك أنّ هذا الرجل المتفرّد كان يمتح أفكاره كلّها من الطّابع الموسيقي للإحساس، فكان في حاجة دائماً إلى أخذ نفَسِه كي يجعل أفكاره تتحرّك. كان ما يرسمه، في الغالب الأعمّ، وقد استبدّ به الحماس رغماً عنه، هو صورة أو استعارة جريئة أو وضعية ملموسة يستخلص منها مشهداً دراماتيكياً مُجسّداً بخطوطه العريضة، فكان أمر ما، في الغالب، له قرابة بالتّفجّرات العظمى للطّبيعة الإبداعية، ينبعث لحظتها - وسط التماعات مُتلاحقة - من هذه الارتجاليات. أتذكّر أسطراً ممّا كان يُمليه، تُشبه مقاطع من قصيدة هجائية، وأخرى كانت تنتشر وتتكاثر كمثل شلّال، عادَّةً بقوة وباستمرار، وكأنّها دليلُ المَراكِب البحرية[1] لهوميروس، والأناشيدُ البربرية لوالت ويتمان[2] كانت تلك أوّل مرّة تسنّى لي فيها، بوصفي شابّاً لا تجربة لي، ولوجُ لغز العملية الإبداعية. كنت أرى الفكرة لا تزال غير واضحة المعالم -ما دامت بعد مجرّد دفء هلامي، كمثل برونز

---

(1) Le catalogue des vaisseaux، هو مقطع شهير من النّشيد الثّاني من إلياذة هوميروس، يُوقفُ خلاله الشّاعر الملحميّ سرده لأحداث حرب طروادة لينطلق في تعداد القوات الإغريقية المسخّرة في هذه الحرب، ثمّ في وصف مماثل، وإن قصير، للقوات الطّروادية. -المترجم-

(2) والت ويتمان (1819-1892)، شاعر أميركي يكنُّ له زفايغ كلّ التّقدير (ويُقدّره أيضاً فاليري لاربو وغارسيا لوركا). يحتفي نثره الشّعريّ بالحياة الحرّة وبالطّبيعة والديمقراطية.

مُذاب من أجل صنع جرس- تولد من بوتقة الإثارة المندفعة، ثمّ وهي تبرد، وتعثر على شكلها، شيئاً فشيئاً. وكنت أرى بعد ذلك هذا الشّكل يستدير ويتحقّق في كامل قوّته، إلى أن ينبجس منه الكلام، في الأخير، بوضوح، فيُلبسُ الإحساسَ الشعري لغةَ الإنسان، تماماً كالعصا التي تقرع الجرس وتجعله يُصدي. وكما أنّ كلّ جزء كان ينبع عن لحن، وكلّ وصف عن لوحة ذات خصّيصة مسرحية، فإنّ الكتاب بكلّ عنفوانه كان ينبثق، بطريقة متعارضة كلّية مع البحوث اللّغوية الفقهية، من نشيدٍ، نشيدٍ من أجل البحر -وكأنّه نشيدٌ للشّكل الأوحَدِ للّانهائي الظاهرِ والمحسوس في هذا الكون- المُدَحرِجِ أمواجَه من أفق إلى أفق، شاخصاً ببصره إلى السّماوات، مُخفياً هاوِيَاتٍ، ومُتلاعباً، من وقت إلى آخر، بالقدر الأرضيّ للإنسان وبمراكبِه الهشّة، بطريقة مُترعة معنى وخاليةٍ منه، في نفس الآن. وبالموازاة مع لوحة البحر هذه، كان يولد وصفٌ للتراجيديّ بوصفه القوّةَ الأولية التي تجعل دمَنا يصطخب في العروق بزئيرها وبقدرتها التّدميرية. ثمّ تدحرجت هذه الموجة الخلّاقة في اتّجاه بلد، فانبثقت إنجلترا، الجزيرةُ التي كان هذا العنصر المتحرّك (البحر) يُدمّرها منذ الأزل ويُحيط بكلّ ضفاف الأرض وكلّ الارتفاعات وكلّ مناطق الكرة الأرضية. وكان البحرُ ثمّة، في إنجلترا، يُعطي شكلاً للدولة: النّظرة المستقيمة والصّافية للبحر تخترق عمق العين، الرّمادية والزّرقاء، كمثل الزّجاج:

إلى حدود العينِ، كلّ فرد هو في الأوان نفسه، مثل بلده، رجلُ بحر وجزيرة، فتغلي حالات شغفٍ قوية وعاصفة، بشهوانية، في هذا العِرق البشريّ الذي أثبت بتفانٍ قواه خلال العصور التي كان الفايكنغ[1] يركبون فيها البحر مغامرين. أمّا الآن فقد نشر السِّلمُ الضّبابَ فوق هذا البلد الذي هزمته الأمواج. لكنّ سكّانه المعتادين على العواصف، يستمرّون في اختيار البحر والاقتحام العنيف للأحداث، بألعاب دامية، بما تحمله في طياتها من أخطار يومية، ويبتدعون لأنفسهم هكذا عواطف تُحفّزهم. وُضعَت في البداية خشبات لصيد الحيوانات المتوحّشة ثمّ من أجل المعارك الفريدة. سال دم الدّببة وأثارت معارك الدّيَكة بطريقة حيوانية شهوةَ الرّعب، لكن سرعان ما أخذ حسٌّ أكثر رقّة يبحث عن إحساس أطهرَ في صدام الرّجال البطولي. فخرجت عندئذٍ، انطلاقاً من تمثُّلات تَقَوِيَةٍ وألغاز مُقامة وسط الكنائس، هذه اللّعبة الكبرى الأخرى لحالات الشّغف الإنسانية، تكراراً لكلّ تلك المغامرات السّابقة، فحدثت حالات عبور أخرى، لكن هذه المرّة في البحور الدّاخلية للقلب. لا نهائيٌّ جديد ومُحيط جديد بصحبة حالات مدّ وجزر للشّغف وللحركات المندفعة

---

(1) الفايكنغ (Vikings)، اسم يُطلق على المحاربين والبحّارة والمستكشفين والتجّار والقراصنة الاسكندينافيين. عُرفوا ببعثاتهم البحرية ابتداء من القرن الثامن الميلادي وإلى القرن الحادي عشر. -المترجم-

للفكر، حيث شكّل الإبحارُ بهمّة والتّأرجحُ والاهتزاز بطريقة خطيرة، متعةً جديدة لهذا الجنس الأنغلو ساكسوني، القادم مُتأخّراً لكن القوي على الدّوام. هكذا ولدت مأساة الأمّة الإنجليزية، مأساةُ الإليزابيثيين.

كلّما كان أستاذي ينطلق بحمية في وصفه لهذه البدايات البربرية والبدائية، كان قولهُ الإبداعيّ يُصدي بقوّة، وكان صوته الذي يتقلّص في البداية وكأنّه وشوشة، مادّاً عضلاته وأربطته، يغدو طائرة من معدن برّاق، مُندفعاً باستمرار بحُرية أكبر ومُرتفعاً أكثر. كان المكتب والجدران المضغوطة التي تُرجع صدى صوته، تُصبح أشدّ ضيقاً لفرط ما كان صوته في حاجة إلى فضاء أرحب. كنت أشعر بالعاصفة تهبّ فوقي وبشفة البحر تُطلق خوارها لافظة بقوة كلماتها المصدية. وكان يبدو لي، وأنا أميل على الطّاولة، أنّني أوجد من جديد في بلدي، على طرف التّلة، أنظر إلى هذه الارتعاشة المشكّلة من ألف موجة وألف عاصفة ريحية قادمة في اتّجاهي لاهثة. لأوّل مرّة هزّ روحي فجأةً هذا الارتعادُ المؤلم الذي يُحيط بولادة إنسان كما بولادة كلمة، فبهتّ ووجلت، شاعراً سلفاً بسعادة غامرة.

عندما كان يُنهي إملاءه الذي ينتزع فيه إلهامٌ قوي الكلام، بطريقة رائعة، من المنهج العلميّ لتحويل الفكر إلى قصيدة، كنت أحسّ وكأنّني أترنّح، مستشعراً ثقل تعبٍ حادّ يحطّ على كاهلي وبنصَبٍ يختلف عن نصبه الذي كان يتّخذ شكل إنهاك،

لأنّ قواه هو تكون قد استُنزفت، بينما أكون أنا -المجتاحَ بهذا التدفّق- لا أزال أرتعش تحت وطأة انبثاق بهذا الامتلاء. لكنّنا معاً كنّا نشعر لحظتئذٍ بالحاجة، كلّ مرّة، إلى نقاش يُهدّئ من أعصابنا كي نعثر على طريقنا إلى الراحة والنوم. وعادة ما كنت أقوم بإعادة قراءة ما كتبته مُرمّزاً، فما تكاد العلامات تتحوّل إلى كلام، حتى يغدو بغرابة صوتٌ آخر غير صوتي هو الذي يتكلّم ويتنفّس ويرتفع، كما لو كان شخص ما قد قام بتغيير اللّغة في فمي. بعد ذلك انتبهت للأمر: لقد كنت، أثناء إعادة قراءة ما كتبته، أُنشد وأُقلّد نبره هو بإخلاص وبتماثل يجعلانني أعتقد بأنّه هو من يتكلّم من خلالي وليس أنا. إلى هذه الدّرجة كنت قد أصبحت سلفاً رجع صدى لكينونته. والحقّ أنّني ما زلت إلى اليوم، أثناء تقديم عرض وعندما تستبدّ بي فورة الكلام، أشعر فجأة، مُنزعجاً، بأنّ المتحدّث ليس أنا، وإنّما شخص آخر؛ كأنّ آخرَ هو من يُعبّر بفمي. عندئذٍ أتعرّف إلى صوت الفقيد العزيز، الفقيد الذي ما عاد يتنفّس إلّا من خلال شفتيّ. كلّما أَنبتَ ليّ الحماسُ جناحين أصير هو، فأعلم أنّ هذه اللحظات هي التي جعلت منّي ما صرتُه اليوم.

كان المؤلَّف يكبر؛ يكبر حولي وكأنّه غابة يحجب ظلّها عنّي بالتّدريج رؤية العالم الخارجيّ. لم أكن أعيش إلّا في الدّاخل، في عتمة المنزل، تحت الأغصان الوارفة والضّاجة

التي يُصبح صوتها كلّ مرّة أعلى؛ أغصان هذا الكتاب الذي كان يتّسع في الحضور المُكتنِف والدّافئ لهذا الرّجل.

باستثناء سويعات دروس الجامعة، كان يومي كلّه ملكاً له. أتناول طعامي على مائدته، باللّيل كما بالنّهار، وكانت رسائل تصعد السُّلّم وتنزله بين شقّتي وشقّته والعكس، وكنت أملك مفتاح بابه وهو يملك مفتاحي، فكان بإمكانه العثور علي في أي وقت دونما حاجة إلى المناداة على مُضيفتي شبه الصّماء. لكن كلّما كانت علاقاتي به تصير أكثر قرباً كنت أزداد انعزالاً عن العالم الخارجيّ، وكلّما كنت أُقاسمه دفء هذا الفضاء الدّاخلي، كنت أُشارك أيضاً في الانعزال المثلّج لوجوده، دائماً على الهامش. أبدى رفاقي تجاهي، دون أدنى تفسير، نوعاً من البرود، وضرباً من الكراهية. هل كان ذلك ناتجاً عن تفاهم سرّي بينهم أم هو محض غيرة بسبب وضعي التفضيلي الواضح؟ فهم كانوا، في جميع الأحوال، يُقصونني من أيّ حديث، ومن نقاش النّدوة، ويتحاشون، وكأنّهم مُتّفقون على ذلك، توجيهَ الحديث إليّ أو تحيتي. حتّى الأساتذة لم يكونوا يُخفون نفورهم منّي. وذات يوم، عندما طلبت معلومة تافهة من أستاذ اللّغات الرومانية، صرفني عنه ساخراً وهو يقول: «بصفتك قريباً من السّيد الأستاذ X... كان من المفروض أن تكون على علم بذلك». ولقد بحثت بالفعل عن استيضاح حقيقة هذا النّبذ غير المبرَّر، لكنّ الكلمات والنّظرات كانت تمنع عنّي كلّ تفسير. منذ أن

أصبحت أعيش رفقة هذين الوحدانيَّين، صرت أنا نفسي معزولاً بالكلّية.

ما كنت لأقلق من هذا الإقصاء من المجتمع، ما دام انتباهي كان مُحّولاً كلّية صوب أمور الفكر. لكن شيئاً فشيئاً جعلت أعصابي تعجز عن مقاومة هذا الضّغط الذي لا ينتهي. لا يُمكننا أن نعيش أسابيع مُنهمكين بهمّة في شؤون الفكر دون أن يكون لذلك انعكاس على صحّتنا. هذا فضلاً عن أنّني كنت قد غيّرت بطريقة مفاجئة جدّاً شكلَ عيشي. كنت قد مررت بطريقة فظّة من طرف إلى آخر، فما كان ممكناً تفادي فقدَ هذا التّوازن السّري الذي أودَعَته الطّبيعة فينا. فبينما كانت خفّة سلوكي في برلين تُرخي عضلاتي بطريقة ممتعة، وكانت مغامراتي النّسائية تُذيب كما لو بفعل اللّعِب كلّ ما كان تراكم في داخلي من قلق، كان جوّ عاصف وضاغط هنا يكبس بلا هوادة على حواسّي المُثارة، حتى إنّها كانت تصطخب فيّ بفعل اهتزازات مسترسلة وارتعاشات كهربائية. فقدت طعم النّوم الصّحي العميق، رغم أنّني أو بالأحرى لأنّني كنت أستمرّ في إعادة كتابة ما أملاه علي مساءً، تحقيقاً لمتعة شخصية، حتى ساعة متقدّمة من اللّيل (باندفاع متلهّف، آخذاً على نفسي أن أحمل في أقرب وقت الأوراقَ إلى أستاذي العزيز). ثمّ تأتي بعد ذلك الكلّية والقراءة السّريعة للنّصوص التي كانت تتطلّب منّي جهداً مُضاعفاً، ثمّ -وهو ما لم يكن يمرّ دون تأثير على أعصابي- تأتي أيضاً طبيعة مناقشتي مع

أستاذي، لأنّ أعصابي كلّها كانت تُستنفر بقوّة حتى لا أبدو أمامه غير آبه بما يقول. فلم يتأخّر الجسد الذي تمّ الإثقالُ عليه بهذه الشّاكلة في إبداء رغبته في الانتقام من هذا الإفراط في الإجهاد. اعتورتني مراراً حالات دوار خفيفة، وهي علامات طبيعية على الخطر المحدق، لكنّني، سُخفاً منّي، كنت أُهملها. إلّا أنّ حالات التعب الشبيهة بالسّبات تضاعفت، فكان كلّ تعبير يصدر عن مشاعري يُدرك درجة قصوى من القوّة، فجعلت أعصابي المُثارة تُنقّب في كلّ كبيرة وصغيرة من ألياف جسدي، مانعة إيّاي من النّوم باعثة فيّ أفكاراً ملتبسة كنت لا أزال أتحكّم فيها حتى تلك اللحظة.

كانت زوجة أستاذي هي أوّل من انتبه إلى أنّ صحّتي مُهّددة بخطر لا يخفى. كنت قد شعرت قبل ذلك أنّ نظرتها القلقة تتفحصني بإمعان. تتعمّد أثناء نقاشاتنا إبداء ملاحظات وتوجيهات تُصبح أكثر تواتراً فأكثر، كأن تقول لي مثلاً إنّ عليّ ألّا أسعى إلى فتح العالم في نصف سنة، وانتهى بها الأمر أن قالت لي دون مواربة: «لقد بالغتَ -خاطبتني بتصميم، ذات أحد مُشمس رائع وجدتني فيه «أحطب» قواعد اللّغة، مُنتشلة الكتاب من يدي- كيف يُمكن لشاب مليء بالحياة أن يكون إلى هذه الدّرجة عبداً لطموحاته! لا تأخذ زوجي نموذجاً لك، فهو مسنّ، أمّا أنت فشابّ وعليك أن تعيش حياتك بشكل مختلف». كلّ مرّة تتحدّث فيها عن زوجها، كان يتسرّب إلى كلامها هذا القدر من الاحتقار الذي يُشعرني بالسّخط، أنا

مُريده المخلص له. كانت تسعى دائماً، عمداً -أنا أُخمّن ذلك- وربّما حتى بضرب من الغيرة التي لا مُسوّغ لها، إلى صرفي عنه باستمرار، معارضة بسخرية مبالغاتي في الارتباط به. إن استمررنا في الإملاء مساءً لمدّة طويلة كانت تطرق الباب بقوّة فتُرغمنا، غير مُعيرة بالاً لاحتجاجات زوجها الغاضب، على التوقّف عن العمل. «سيهدّ أعصابك وسيحطّمك كلّية»، تقول لي بمرارة عندما تجدني مُنهك القوى، «ما الذي لم يفعله بك بعدُ في هذه الأسابيع القليلة؟ أنا لا يُمكنني أن أتحمّل أكثر هذه الطّريقة التي تُسيء بها إلى نفسك. وفضلاً عن هذا...» وتوقّفت قبل أن تُتمّ الجملة، لكنّ شفتها كانت ممتقعة ومرتعشة من الغضب الذي تُجهد نفسها في السّيطرة عليه.

والحقّ أنّ أستاذي لم يكن يُسهّل عليّ حياتي؛ فبقدر ما كنت أخدمه بحماس، كان يبدو غير عابئ البتّة بشغفي العجول. نادراً ما كان يشكرني؛ عندما آتيه صباحاً بالعمل الذي استنزف منّي جزءاً من ليلي، كان يكتفي بأن يقول لي بجفاف: «كان بإمكانك أن تنتظر إلى الغد». وإن أقدمت، بشغفي المتحمّس، على مبادرة كي أُرضيه، يزمّ شفتَيه فجأة، وسط الحديث، ويدفعني عنه بكلمة ساخرة. صحيح أنّه بعد ذلك، عندما يراني منسحباً مُهاناً ومُضطرباً، كان يحطّ عليّ من جديد بنظرته الدّافئة والحانية كي يُخفّف من خيبة أملي، لكن ذلك لم يكن يحدث إلّا في النّادر، أجل في القليل

النّادر. هذا الدّفء والبرود، هذا التّناوب بين اللّطف المُبهج والصّد المقيت كان يُحيّر كلّية مشاعري المتأجّجة التي كانت تشتهي. كلّا، ما كان بإمكاني أبداً أن أُعبّر بوضوح عمّا كنت أشتهيه حقّاً وعمّا كنت أطمح إليه وأطالب به، وعمّا كانت جهودي تتغيّاه، وأيّ نوع من المصالح كنت أودّ تحقيقها بحماسي المخلص. ذلك أنّ الحبّ المشغوف، وحتّى العفيف، عندما يستهدف امرأة فإنّ مُنيته، رغم كلّ شيء، وبطريقة لا واعية، تكون هي تحقيق الوصال، فتُمكّنه الطّبيعة الخلّاقة، من خلال امتلاك جسديّ، من ضربٍ من الاتّحاد المُنجَز، لكن بالنّسبة إلى شغف فكريّ مُنبثق بين رجلين، ما هو الانجاز الذي سيدّعي السّعيَ إليه، ما دام الشّغفُ غيرَ قابل للتّحقّق؟ هو يجعل يحوم، دون هوادة، حول الشّخص المحبوب، مُتأجّجاً باستمرار بنشوة جديدة لا تُهدّئها أبداً أُعطيةٌ سامية. يتدفّق الشّغف بلا انقطاع، لكن ليس بإمكانه أبداً أن يكون على سجيته، ويبقى غيرَ مشبع على الدّوام، تماماً كما هي حال الفكر. وهكذا فإنّ مُجاورتي لأستاذي لم تعنِ أبداً شدّةَ قُربي منه. لم يكن حضوره يبرز ويتحقّق أبداً بشكل كامل في حواراتنا المطوّلة. حتى عندما كان يُلغي المسافات بيننا ويُبدي ثقته، كنت أعلم أنّه بعد ذلك سيغدو بإمكانه أن يُحطّم بحركة واحدة عنيفة هذا الاتّفاق العميق. كان انعدام الثّبات هذا يُبلبل مشاعري، وأنا لا أُبالغ أبداً عندما أقول إنّني كثيراً ما كنت -في حالات إثارتي القصوى-

قريباً من ارتكاب حماقة، فقط لأنّه أبعد عنه بلا اهتمام، وبكفّ لا مُبالية، كتاباً لفتُّ انتباهَه إليه، أو لأنّه نهض فجأة، ذات مساءٍ ونحن غارقان في حوار عميق، وكنتُ أنا أتعقّب انبثاق أفكاره، لاهثاً (مُباشرة بعد أن ضغط برقّة كفّه على كتفي)، وقال دون مقدّمات: «لكن انصرف الآن! الوقت متأخّر. طابت ليلتك». كانت توافه مثل هذه تكفي كي تُزعزعني لساعات وأيّام وأيّام. ربّما كانت حساسيتي المُثارة بقوة والحذرة على الدّوام تلمح اعتداءً حيث لا توجد أيّ نية لاقترافه. لكن هل يُمكننا طُرّاً أن ننعم بالسّكينة من تلقاء أنفسنا عندما تكون مشاعر بهذا الاضطراب قد اجتاحتنا؟ وكان الأمر نفسه يتكرّر كلّ يوم: قريباً منه أتحرّق من المعاناة وبعيداً عنه يتجمّد قلبي. وكنت أُصاب بخيبة أمل مستمرّة من تَخَفّيه دون أن أتلقّى أيّ علامة تُطمئنني، فيتولّاني الالتباس مع أدنى مُصادفة!

والغريب أنّني كنت ألتجئ إلى زوجته كلّ مرّة أشعر فيها أنّه قد جرحني. ربّما كان ذلك رغبة غير واعية منّي في العثور على شخص يُعاني بدوره من هذا الإقصاء الأخرس، أو ربما لم يكن سوى الحاجةِ إلى تبادل الحديث مع شخص والعثور لديه على الأقل على الشّفقة إن تعذّرت المساعدة. في جميع الأحوال كنت أفزع إليها وكأنّني أفزع إلى حليف سرّي. كانت في العادة تسخر من شكّي أو تقول، رافعة كتفيها ببرود، إنّ من المفروض أن أكون الآن قد اعتدت سلفاً على هذه

السّلوكيات الغريبة والمؤلمة. لكنّها كانت تنظر إليّ في بعض الأحيان بحدّة غريبة، وتعكس عيناها مُفاجأتها الكبيرة، عندما تشرع خيبة أملي تدلقُ أمامها فجأة طوفاناً من المؤاخذات والتّعبير عن الاستياء، وسط الدّموع المتشنّجة والكلمات المتأتئة، لكنّها لم تكن تنبس بكلمة. وحدها شفتاها كانتا تنخرطان في لعبة تشنّجات مُسيطَرٍ عليها، فأشعر أنّه كان يلزمها جهد جبّار حتى تحول دون أن تصدر عنها أيّ كلمة غاضبة أو أيّ كشف لسرّ. هيّ أيضاً، أنا متأكّد من ذلك، كان لها شيء تودّ قوله لي. هي بدورها تُخفي سرّاً، وهو ربّما نفس سرّ أستاذي. لكن بينما كان هو يصدّني عنه فجأة، ما أن أغدوَ أشدّ ضغطاً، كانت هي في الغالب الأعمّ تقطع الطّريق على تفسيرات واضحة بالتجائها إلى المُداعبات والممازحات.

كنت ذات مرّة على وشك إرغامها على الحديث. في الصّباح، عندما آتيت أستاذي نصَّه، لم أستطع منع نفسي من أن أحكي له كم هزّني هذا المقطع تحديداً (البورتريه الذي كان قد رسمه لمارلو). وفي افتتاني الذي كان لا يزال متأجّجاً، أضفت بتقدير أنْ ليس في مُستطاع أيّ شخص آخر أن يرسم بورتريه بهذه البراعة. عندئذٍ زمَّ شفته مُلتفتاً عنّي فجأة ورمى بالورقة على الطّاولة وهو يُتمتم باحتقار: «كفّ عن هذه التّفاهات! ماذا عساك تعنيه بالبراعة؟». هذا الكلام العنيف (والذي لم يكن، بالتّأكيد، سوى قناع موضوع بإتقان لستر حشمة تتأكله) كان كافياً ليفسد علي يومي. بعد الظهر، عندما

وجدتُني وحيداً ساعةً مع زوجته، انطلقتُ فجأة فيما يُشبه انفجاراً هستيرياً، فشرعت أصرخ، مُمسكاً بكفّها: «أخبريني لمَ يكرهني إلى هذه الدّرجة؟ لماذا يحتقرني هكذا؟ ما الذي اقترفته في حقّه؟ لماذا تُغضبه إلى هذه الدّرجة كلُّ كلمة تصدر عنّي؟ ما الذي عليّ فعله؟ ساعديني. لماذا لا يستطيع تحمّلي؟ أنبئيني بالسّبب، أتوسّل إليك!».

عندئذٍ نظرت إليّ نظرتها الثّاقبة، وقد فوجئَت بانفجاري المتوحّش هذا. «لا يتحمّلك؟» وأطلقت في الآن نفسه قهقهة عالية، قهقهة تنبثق وكأنّها تدبُّبُ شرّير وحادّ حتى إنني تقهقرت أمامها على الرغم مني. «لا يتحمّلك؟» كرّرت مرّة أخرى، ناظرة بغضب في عيني الزّائغتين. لكنّها انحنت عليّ بعد ذلك وقد أصبحت نظراتها ترقّ شيئاً فشيئاً، مُعبّرة عمّا يُشبه الشفقة، وفجأة ربّتت شعري (لأول مرة): «أنت حقّاً طفل، طفل ساذج لا يُلاحظ شيئاً ولا يرى شيئاً ولا علم له بشيء. لكن أحسن أن يكون الأمر هكذا، وإلّا لكان قلقك أشدّ».

ثمّ ولّت بوجهها عنّي فجأة. عبثاً حاولتُ تسكين اضطرابي. كنت كأنّني خِيطَ عليّ في كيس أسود لكابوس غير قابل للاختراق، وكنت أجاهد بكلّ قوّاي حتّى أحصل على تفسير وكي أخرج من الالتباس الملغز لهذه الأحاسيس المتناقضة.

مرّت أربعة أشهر على هذا المنوال، في شكل أسابيع من

الإثارة والتحوّل غير المسبوقَين، حتّى أشرف نصف السّنة على نهايته، ورأيت مُرتعباً العطلة تقترب. فأنا كنت أحبّ هذا المَطهَر[1]، كما أنّ الجوّ غير الثقافي والباهت الذي يسود الحياة الأسرية في بلدي، كان يُهدّدني وكأنّه منفى وغضبٌ. كنت قد شرعت سلفاً في وضع خطط سرية لأُقنع والدَيّ بأنّ عملاً مُهمّاً يُبقيني ها هنا، شارعاً في نسجٍ بلا مهارة لشبكة من الأكاذيب ولأسبابٍ للهروب كي أُطيلَ مدّة هذا الحضور الملتهِم. لكنّ زمن انصرافي وساعته كان قد حَدّدهما القدرُ منذ زمن طويل. وكانت هذه السّاعة قد عُلّقت فوقي، غيرَ مرئية، مثلما عُلّقت في برونز الأجراس قَرعةُ جرس منتصف النّهار، كي تُصدي بعد ذلك على حين غرّة مُذكّرةً الغافلين بعملهم أو بلحظة الفراق.

كم كانت بداية هذا المساء جميلة، وكم كان جماله خادعاً! كنت قد تعشّيت بصحبتهما معاً. كانت النّوافذ مُشرعة فتُرى من إطارها المعتّم السّماء الغسقية تأخذ مكانها شيئاً فشيئاً، ببطء، مكسوة بسُحُبها البيضاء، وكان أمرٌ ما لطيفٌ ومشرق يصدر عن انعكاساتها الطّافية بجلال ويمتدّ إلى البعيد، فيُحدث لدينا انطباعاً قوياً وعميقاً. كنّا قد تحادثنا، زوجته وأنا، بتلقائية وبهدوء وحيوية أكثر ممّا تكون عليه

---

(1) المَطهَر (Purgatoire)، معتقد كاثوليكيّ يُشار به إلى مكان تُطهّر فيه النّفسُ بعد الموت بعذاب مؤقّت. -المترجم-

الحال في العادة. كان أستاذي ملتزماً الصّمت، بينما كنّا نحن نتجاذب أطراف الحديث. لكنّ صمته كان يمتدّ فوقنا وكأنّه جناح يكنف حوارنا. كنت أنظر إليه بجانب عينَيّ، خلسة، فرأيت هذا اليومَ في كينونة أستاذي إشراقاً مُتفرّداً وبعض الاعتمال أيضاً، لكن لا شيء يوحي بالتوتُّر، تماماً كما كانت حال هذه السُّحُب الصّيفية. كان يرفع أحياناً كأس نبيذه ويُبقيها في النّور، مُستمتعاً بلونها. وعندما كان نظري المبتهج يُرافق حركته تلك، كان يُبدي ابتسامة خفيفة ويرفع كأسه في اتّجاهي وكأنّه يرفع نخباً في صحّتي. نادراً ما سبق لي أن رأيت وجهه بهذا الإشراق وحركاته بهذه السّكينة والاتّساق. كان يجلس ثمّة وكأنّه محفوف ببهجة العيد، كما لو كان يسمع في الشّارع أصداء موسيقى أو يُصيخ السّمع إلى حوار غير مرئي. شفتاه اللتان كانت تعبرهما في العادة ومن دون انقطاع دبدبات غير ظاهرة، كانتا ساكنتَين ورخوتَين مثل فاكهة مُقشّرة، وجبهتُه التي كان يُديرها لحظتئذٍ ببطء إلى جهة النّافذة، كانت تسبح في انعكاسات هذا الإشراق الهادئ فتبدو لي أجمل من أيّ وقت سبق. كان من العجب أن تراه هكذا مُشبَعاً، فهل كان أثرُ هذا المساء الصيفي الرّائق والفعلُ الجميل لرقّة هذا الجوّ ذي الألوان المتدرِّجة، هو ما يفعل فعله فيه، أم أن ذلك يرجع إلى فكرة تعويضية تلمع في روحه؟ كنت أجهل السّبب، لكن بما أنّني مُعتاد على القراءة في محياه وكأنّني أقرأ في كتاب مفتوح، فقد كنت متأكّداً من أمر واحد، وهو أنّ ربّاً

رحيماً كان قد وضع، يومَذاك، بلسماً على تجاعيده وثنيات قلبه.

وكان أيضاً قد نهض بهدوء غريب ودعاني بحركة رأسه المعهودة، للسّير في أثره إلى مكتبه. هو الذي كان يمشي في العادة بخطوات سريعة، مضى ببطء فريد، ثمّ انثنى من جديد وذهب للبحث (على غير عادته أيضاً) عن قنّينة الخمر المخبوءة في الدّولاب وأتى بها في إهاب احتفاليّ مُحتاط. بدا أنّ زوجته قد لمحت بدورها، مثلي أنا، أمراً غريباً في حركاته، فرفعت بصرها مدهوشة عمّا كانت تخيطه. وبما أنّنا كنّا تلك اللحظة نلتحق بعملنا، فقد راقَبَت بفضول أخرس موقفه الشاذّ والمتكلِّف.

كان المكتب ينتظرنا في حميميته الغسقية، غاطساً ككلّ يوم في ظلّه. وحده المصباح كان يُشكّل دائرة ذهبية حول العلبة البيضاء لأوراق الكتابة. جلست في مقعدي المعتاد وأعدت قراءة الجمل الأخيرة في المخطوط، لأنّه في حاجة دائماً، كي يعثر على الخيط النّاظم لخطابه، إلى الاستناد على الإيقاع، كما يستند الموسيقيّ إلى معيار النّغم. وبينما كان يُواصل في العادة فوراً بعد قراءتي للجملة الأخيرة، ظلّ هذه المرّة صامتاً. انتشر الصّمت كثيفاً في الغرفة، وقد جعلت الجدران سلفاً تعكسه ثقيلاً ومتوتّراً. بدا أنّ أستاذي لم يعثر بعد على تركيزه، لأنّني كنت أسمعه خلفي يمشي ويجيء بعصبية. «اقرأ مرّة ثانية!» - غريب كم كان صوته قد شرع

فجأة يهتزّ، شديدَ الاصطخاب. كرّرت قراءة الفقرات الأخيرة، فواصل كلامه دفعة واحدة، وأملى بطريقة متشنّجة، بسرعة وبتكثيف أكثر من المعتاد، فانبنى المشهد في خمس جمل لا غير. ما كان قد عرضه إلى حدود تلك اللحظة هو الظّروف الثّقافية السّابقة لمجيء المسرحية الدرامية، فبدا ذلك في شكل جدارية ولوحة تاريخية تُصوّر المرحلة. أمّا الآن فقد عاج، فجأة، نحو المسرح نفسه الذي صار في الأخير، بعد السّير على غير هدى، وبعد «العربة التائهة» مُقيماً غيرَ مُترحِّلٍ وبنى لنفسه مقرّاً مُعزّزاً بالقوانين وبالامتيازات المكتوبة. أُنشئ في البداية «مسرح الوردة[1]» ومسرح «الثّروة[2]»، في شكل كوخَين من الألواح، خشنَين لتُقام فيهما تمثيليات خشنة بدورها. لكنّ الحِرَفيين صمّموا بعد ذلك شكلاً جديداً للألواح، في مستوى النّضارة المتنامية للشّعر الذي كان يتطوّر بوضوح؛ فانتصبت -على حافة التايمز، على قواعد موضوعة في أرض موحلة ورطبة لا قيمة لها- بنايةٌ من الخشب بمنارتها سداسية الأضلاع الخشنة؛ ثمّ أُنشئ «مسرح الكرة الأرضية» الذي سيظهر على خشبته شكسبير، الأستاذ. نشأ ثمّة مثل سفينة غريبة ألقى بها البحر، ببيرق القراصنة الأحمر الخفّاق

---

(1) قاعة فُرجة أُنشئت في لندن سنة 1587، خلال فترة حكم الملكة إليزابيث الأولى. -المترجم-

(2) قاعة مسرح تاريخية في لندن بُنيت حوالي سنة 1600، وهدمها برلمان الطّهرانيين سنة 1642. -المترجم-

على سارية عظيمة، غائصاً بقوة في العمق المُتَوَحِّل. كان جمهور الدّهماء يصطخب بهرج على الأرضية، وكأنّهم في ميناء، بينما كان يوجد الجمهور اللطيف، أعلى الأروقة، فوق الممثّلين، مُلتهباً وباسماً ومثرثراً. كانوا جميعاً متلهّفين يُطالبون ببداية العرض، فيضربون بأرجلهم، ضاجّين، ويدقّون بمقابض سيوفهم على الألواح إلى أن أُنيرت الخشبة، لأول مرة، في الأسفل، بشعاعٍ من بضع شمعات أتوا بها، وتقدّمت شخوص ترتدي ملابس غريبة لتمثّل ملهاة بدت مُرتجلة. عندئذٍ. . أنا لا أزال إلى اليوم أتذكّر كلماته، «انفجرت فجأة عاصفةُ الجمل، انفجر بحرُ الشّغف اللانهائي فبعث، انطلاقاً من هذه الخشبات المحدودة، نحو كلّ الأزمنة وكلّ مناطق القلب الإنساني، أمواجَه الدّاميةَ التي لا تنضب ولا تُسبَر، هادئةً ومأساوية ومتنوّعة كمثل تنوّع أقاصي الإنسانية وصورِها كلّها. ذاك هو مسرح إنجلترا، ومسرح شكسبير».

بعد هذه الكلمات المنطوقة بعنف، توقّف الإملاءُ فجأة، وأعقبه صمت طويل وثقيل. التفتُّ نحوه، قلقاً. كان أستاذي واقفاً ضاغطاً بكفّ على الطّاولة، بادية عليه حال الإنهاك المعروفة عنه. لكنّ صلابته كانت تتّسم هذه المرة بأمر مُرعب. قفزت، مُتوجّساً من أن يكون قد حصل له شيء، وسألته بقلق إن كان عليّ أن أتوقّف عن الكتابة. لم يزد في البداية على أن نظر إلي، مُتقطّع الأنفاس، كأنّه فاقد رشده وجامد. لكنّ نجمة عينه عادت بعد ذلك للبزوغ، واضحة

زرقاء، وأضحت شفتاه أقلّ تشنّجاً، واقترب منّي: «حسنٌ! ألم تُلاحظ شيئاً؟»... ثمّ نظر إليّ بإلحاح. «أُلاحظ ماذا؟» تمتمت بصوت مُضطرب. عندئذٍ تنفّس بعمق وابتسم قليلاً. منذ شهور لم أشعر لديه بهذه النظرة الحانية واللّطيفة والرّقيقة. «انتهى الجزء الأول». وجدت صعوبة في قمع صرخة فرح، لفرط ما كانت المفاجأة قد ملأتني به من مشاعر. كيف أمكنني ألّا أنتبه إلى ذلك؟ نعم، البناء كلّه أُنجز، متناضداً بطريقة رائعة منذ الماضي السّحيق وحتى عتبة بداية الإنجاز؛ فأضحى بإمكان آل مارلو وآل بن جونسون وآل شكسبير أن يأتوا الآن وأن يتخطّوا هذه العتبة مظفرين. كان ذلك، بالنسبة إلى الكتاب، هو عيد الميلاد الأوّل. سارعت بعدّ الأوراق، فوجدت أنّ هذا الجزء الأوّل، وهو الأصعب، سيشتمل على مئة وسبعين صفحة بكتابة ضيّقة. ما كان سيأتي بعد ذلك هو عمل تشكيلٍ وعرضٍ يُنجز بحرّية أكبر، بينما كان الأمر قد اقتضى، حتى الآن، مُتابعة الوثائق التّاريخية عن كثب. لا مجال للشك؛ إنّه سيُنهي مؤلّفه، مؤلّفنا!

لا أدري إن كنت قد انسقت إلى حالات فرح ضاجّة، وما إن كنت قد رقصت فرحاً وفخراً وسعادة. لكن حماستي كانت، دون شكّ، قد اتّخذت أشكالاً غير مُنتظرة البتّة، لأنّ نظرة أستاذي تابعتني باسمة، بينما كنت أُعيد بسرعة قراءة الجمل الأخيرة، أو أَعُدّ على عجل الأوراق التي كنت أحملها وأُقدّر وزنها وأجسّها بحبّ، وقد أخذ خيالي سلفاً في

محاولة تقدير المدّة الزّمنية التي سيكون بإمكاننا أن نُنهي فيها العمل في كلّيته. كان فخره المُتحَكَّم فيه والمتواري في الأعماق، يبرز مُنعكساً في فرحي. كان ينظر إليّ باسماً بحنو، ثمّ أقبل نحوي بخطى بطيئة حتّى أضحى قريباً مني مادّاً يديه كلتيهما وأمسك بكفّي، وراح يتفحّصني ثابتاً، فامتلأ بؤبؤاه -اللّذان لم يكونا في العادة يُبديان لونهما إلّا في لحظات متقطّعة، كمثل نار تتأجّج تارة وتخمد أخرى- بهذه الزّرقة الصّافية، مُترعين حيوية، فكانا الوحيدَين، من بين كلّ العناصر، القادرَين على تشكيل عمق الماء وعمق الإحساس الإنساني. ثمّ صعدت هذه الزّرقة المشرقة من عمق البؤبؤين وتقدّمت حتى اخترقتني فشعرت أنّ الذبذبة المتّقدة التي تنبع منها تخترق كياني بلطف وتنتشر في كلّ أرجائه مُمكّنة روحي من بهجة شاسعة وغريبة. صدري كلّه تمدّد فجأة بفعل انبثاق هذه القوّة فشعرت بجوّ منتصف النّهار الإيطالي يتفتّح في كياني. «أنا على علم بذلك»، قال خلال لحظة الإشراق هذه، «أنا أعرف أنّني ما كنت، من دونك، لأشرع في هذا العمل، وأنا لن أنسى لك هذا أبداً. لقد منحتَ نَصَبِي نفَساً مُنقذاً، فعتقت ما كان بقي من حياتي ضائعاً ومُشتّتاً، أنت، أنت وحدك! لا أحد صنع من أجلي أكثر ممّا صنعته أنت، ولا أحد ساعدني بهذا الإخلاص كلّه. هذا هو السّبب الذي يجعلني الآن لا أخاطبك بصيغة الجمع، وإنّما بصيغة الإفراد، وأشكرك، فلا أقول أنتم من يجب أن أشكره،

وإنّما. أنت من علي شكره. حسن! سنقضي الآن بعض الوقت معاً مثل أخوين».

جذبني برفق نحو الطّاولة التي وُضع عليها كأسان، وأمسك بالقنّينة المُعَدّة للمناسبة. كان قد أعدّ هذا النّخب الرّمزي شهادةَ عرفان بالجميل، وكنت أنا أرتعش فرحاً، لأنّ لا شيء يُبلبل الإنسان بقوّة أكثر من التحقُّق المفاجئ لرغبته الأعزّ، وكان عرفانه بالجميل قد عثر على أجمل الإشارات التي بإمكانها أن تُعبرب بطريقة ملموسة عن الثّقة، وهي الإشارة التي كنت أصبو إليها بطريقة لا واعية: أن يُخاطبني بضمير المفرد الأخوي الممتدّ فوق فارق العمر بيننا، والذي تُصبح قيمته مُضاعفة مرّات بسبب هذه المسافة التي تفصل بيننا والتي يصعب جدّاً قطعها. كانت القنّينة تُصدي سلفاً، تلك العرّابةُ التي لا تزال خرساء والتي من شأنها أن تُهدّئ من الآن فصاعداً وإلى الأبد من إحساسي بالقلق، بنفحي ما يلزمني من ثقة. روحي بدورها كانت قد جعلت تُصدي هي أيضاً مُصدرة ما يُشبه صدى القنّينة المهتزّ، لكن ها هو ذا عائق يُؤخّر لحظة الاحتفال. كانت القنّينة مُغلقة ولا فتّاحةَ لدينا. آتى أستاذي حركة القيام للذّهاب بحثاً عنها، لكنّني استبقت، وقد خمّنت نيته، وسارعت إلى قاعة الطّعام، مُتأكّلاً بانتظار هذه اللّحظة التي من شأنها أخيراً أن تُهدّئ من روعي، وأن تُقدّم الشّهادة، بأقوى صورة ممكنة، على ما يحمله لي من عطف.

عندما اجتزت الباب، هكذا، بسرعة، خارجاً إلى الممرّ

غير المُنار، اصطدمت في العتمة بشيء ما رطب، تراجعَ على الفور. إنّها زوجة أستاذي التي من المفروض أن تكون قد تنصّتت عند الباب على ما قلناه. لكن من الغريب أنّ الاصطدام رغم قوّته لم يجعلها تصرخ، واكتفت بالتقهقر دون أن تنبس بكلمة. وأنا أيضاً ضمتُّ مرعوباً وغير قادر على إيتاء حركة. دام ذلك لحظة، بقينا فيها صامتَين خجلَين من بعضنا، هي لأنها فوجئت مُتلبّسة بجرم التجسُّس الأعظم وأنا بسبب مفاجأتي من هذا اللقاء غير المنتظر. لكنّني سمعت بعد ذلك خطواً خفيفاً في العتمة ورأيت نوراً يُشعل فلمحتها ممتقعة يكتسي وجهها علامات تحدٍّ، مُستندة بظهرها إلى الدّولاب. كان نظرها يتفحّصني بحدّة وكان في وضعيتها الثّابتة أمر ما داكنٌ، وكأنّه تحذير مُتوعِّد. لكنّها لم تتلفّظ كلمة واحدة.

كانت يداي ترتعشان عندما عثرت على الفتّاحة، بعد أن قضيت وقتاً طويلاً أتلمّس بعصبية، ودون أن أرى شيئاً تقريباً. وجدتُني مضطرّاً للمرور أمامها مرّتين، وكلّ مرة كنت ألتقي، عندما أرفع بصري، بهذه النظرة الثابتة التي تلمع بقوّة، والدّاكنة، في نفس الآن، وكأنّها خشب مصقول، لا شيء فيها يعكس خجلها من أن تكون قد ضُبطت متلبّسة بالتنصُّت عند الباب. لا، بل على العكس من ذلك، كان في عينها البرّاقة والعدائية والمصمِّمة، اتجاهي، تهديدٌ لم أفهمه، وكان شكل التّحدي في عينيها يُظهر أنّها مُصمِّمة على عدم التخلّي عن هذه الوضعية غير الملائمة، وأنّها ستُواصل الحراسة

والمراقبة بهذه الطّريقة نفسها. بلبلتني هذه الإرادة القوية، فوجدت نفسي على الرغم مني أتقوّس تحت نظرتها المهدّدة والحيوية، والمسلَّطة عليّ. عندما كنت، أخيراً، أنزلق من جديد بخطى متردّدة إلى الغرفة حيث كان أستاذي قد أمسك بالقنّينية في يديه، مُتلهّفاً، كان الفرح الشّديد الذي استولى عليّ قبل لحظة قد أخلى مكانه لقلق غريب وبارد.

لكن، يا له من انشراح كان بادٍ عليه وهو ينتظرني! ويا له من هدوء كان يوجّه به نظره نحوي! كنت أحلم دائماً أن أراه أخيراً، ولو مرّة واحدة، هكذا وقد تبدّدت سُحُب الحزن عن جبهته. لكن الآن، وقد أشرق السّلام على هذه الجبهة الملتفتة نحوي بأخوية، ها هو ذا الكلام يخونني. كانت فرحتي كلّها تُولّي الأدبار كما لو مُنسَابة في قنوات سرية. استمعت إليه، في التباسي، بل حتّى في خجلي، وهو يشكرني مُخاطباً إيّاي انطلاقاً من تلك اللّحظة بأُلفَة بضمير المفرد، وأصدت الكأسان المتماسّتان بصوت فضّي. أحاطني بذراعه بمودّة وقادني نحو الأرائك. أخذنا مكانَينا متقابلَين، يده موضوعة بتلقائية على كفّي، فشعرت به، لأول مرة، صريحاً كلّية وتلقائياً في كلّ ما يصدر عن كيانه. لكنّني كنت عاجزاً عن الحديث، وكان نظري موجّهاً، على الرغم مني، نحو الباب، مُتوجّساً بقوّة من أن تكون لا يزال ثمة متجسِّسة. هي تسمع، فكّرت دون انقطاع، هي تسمع كلّ كلمة يقولها لي، كلّ كلمة يتلفّظ بها. لكن لماذا اليوم تحديداً، أجل لماذا اليوم؟ وعندما

اكتنفتني نظرته الدّافئة قال لي فجأة: «أريد أن أحدّثك اليوم عن نفسي، عن مرحلة شبابي»، فانتصبت أمامه مرعوباً، أترجّاه بكفّي أن لا يفعل، حتى إنه رفع إلي عينَين مندهشتَين: «ليس اليوم، تمتمت، ليس اليوم... أعذرني». كانت تبدو لي قبيحةً فكرةُ أنه قد يفضح أسراره أمام جاسوس وجدتُني مُرغماً على عدم التّبليغ عنه.

نظر إليّ أستاذي نظرة مُحيّرة: «ما بك؟» سألني شبه غاضب. «أنا مُتعب!.. اعذرني... هذا أقوى منّي. أنا أعتقد -قلت ذلك ونهضت مُرتعش الجسد- أعتقد أنّه يحسن بي أن أنصرف». وانحرف نظري، على الرغم مني، عندما مررت أمامه، في اتجاه الباب، مُفترضاً أنّ ذلك الفضول العدائيَّ والغيورَ قد يكون لا يزال ثمّة، خلف شقّ الجدار، مُترصّداً.

عندئذٍ نهض هو أيضاً من أريكته مُتثاقلاً، وحلّق ظلٌّ على وجهه الذي أضحى فجأةً تعِباً. «أتريد حقّاً أن تنصرف الآن؟. هذا المساء، هذا المساء بالذّات؟» أمسك بيدي التي أثقلها توتّر خفيّ، لكنّه سُرعان ما تركها تسقط وكأنّها صخرة: «يا للأسف -قال بخيبة أمل- لقد كنت سعيداً جدّاً بمحادثتك بحرية هذه المرّة. يا للأسف». انتشرت تنهيدته العميقة هذه، لحظةً، عبر الغرفة وكأنّها فراشة سوداء. كنت غارقاً في خجلي وفي ضيقي وفي توجّسٍ عصيّ على التّفسير، وانسحبت بخطو مضطرب وأغلقت الباب خلفي بهدوء.

وصلت إلى غرفتي بصعوبة، جاسّاً، وارتميت على الفراش، لكنّني فشلت أن أنام. لم يسبق لي أن أحسست بهذا العمق أنّ مسكني، ذا الجدران الملساء، مُعلّقٌ فوق مسكنهما وأنّه لا ينفصل عنه إلّا بهيكل مُظلم ومُلغز. أمّا الآن وقد استُثيرت أعصابي فقد كنت أشعر، كما لو بفعل السّحر، أنّهما مُستيقظان معاً أسفل منّي. كنت أراهما دون أن أراهما، وأسمع دون أن أسمع، كيف يمشي ويجيء هو، الآن، أسفل منّي، في غرفته، مُضطرباً، بينما تجلس هي خرساء في مكان آخر أو تحوم مُتلصِّصة مثل طيف. لكنّني كنت أعلم أنّ عينَيها كانتا مفتّحتين، فيُصيبني بالرّعب وضعُ الجاسوسة الذي تحتلّه في ذهني. أحسست فجأة، واقعاً فريسة لكابوس، بالمنزل الثقيل والصّامت كابساً عليّ بظلاله وبسواده.

قذفت اللحاف عنّي، كفّاي حارقتان. ما الذي اقترفتُه؟ كنت أصبحت شديد القرب من السّر، وكنت حتّى أشعر على وجهي بأنفاسه الدّافئة، وها هو ذا الآن قد ابتعد من جديد. لكنّ ظلّه، ظلّه الأخرسَ والسّميكَ لا يزال يحوم مُدمدماً. كنت أشعر به في المنزل وكأنّه خطر مُحدق، يزحف كما تزحف قطّة على قوائمها اللّينة، موجوداً ها هنا، مُقبلاً مُدبراً، ناطّاً، يُلامسني دائماً ويُحيّرني بالاتّصال الكهربائيّ لجلده، الدّافئ والشّبيه مع ذلك بشبح. وكنت أستشعر دائماً في الظّلمة نظرةَ أستاذي الحانيةِ والنّاعمةِ مثل كفّه الممدودة، والنّظرةَ الأخرى أيضاً الحادّة والمهدِّدة والمرعوبة، نظرةَ زوجته. ما

شأني أنا بسرّهما؟ لماذا يضعانني معاً، معصوب العينين، في حمأة شغفهما؟ لماذا يُدخلانني في أزمتهما غير القابلة للإدراك، ولماذا يُسلّط كلّ منهما على دماغي شعاع غضبه وكراهيته المضطرمة؟

كانت جبهتي لا تزال حامية، فنهضت وفتحت النّافذة. المدينة، في الخارج، نائمة هادئة تحت هذه السّماء الصّيفية. ثمّة نوافذ لا يزال يلمع فيها نور المصابيح، لكنّ من يجلسون خلفها كانوا بالتّأكيد يتسامرون بألفة يدور بينهم حديثٌ هادئ أو يقرأون كتاباً أو تُدفئ قلوبَهم موسيقى هادئة. أمّا البيوت التي أُغلقت مصارع نوافذها وسادها الظّلام، فلا شكّ أنّ نوماً مُريحاً يتنفّس فيها بهدوء. وكانت تحوم فوق كلّ هذه الأسطح الهادئة سكينةٌ ناعمة، كأنّها القمر وسط أبخرته الفضّية، وهدوءٌ صافٍ مشمولٌ بالرّحمة، فتسقط الضّربات الإحدى عشرة للسّاعة، دون خشونة، في أذن هؤلاء جميعاً الحالمةِ منها أو المستمعةِ مصادَفَةً. أنا وحدي، هنا في هذا المنزل، كنت أشعر أنّهما لا يزالان مستيقظان حولي وأنّني مُحاصر بأفكار غريبة وشرّيرة، فأجهَد أمر ما غريب نفسه فيّ، بحمية، بغيةَ فهم هذا الضّجيج الملتبس.

فجأة، تقهقرت مرعوباً. أليس هذا صوتَ خطواتٍ على السُّلّم؟ انتصبت واقفاً كي أُصيخ السّمع. وبالفعل، كان هناك شخص ما يصعد درجات السُّلّم جاسّاً كأنّه أعمى، بخطو حذر ومتردّد وغير ثابت. تعرّفت أنين الخشب تحت الأقدام وصوتَه

المكتوم. لا يُمكن لهذا الخطو أن يتّجه إلّا إليّ، إليّ أنا وحدي، لأنّ لا أحدَ يسكن هنا تحت السّقف، غير العجوز الصّماء التي نامت منذ وقت طويل، كما أنّها لم تكن تستقبل أحداً في حجرتها. هل هو أستاذي؟ كلّا، فهذا ليس إيقاعه السّريع والمترجرج. هذا خطوٌ مُتردّد ومسحوبٌ بجبن (كما يحدث الآن تماماً) على كلّ درجة. من يقترب بهذه الطّريقة يُمكن أن يكون دخيلاً أو مُجرماً لا صديقاً. أنصت بانتباه شديد حتى إنّ أذنَيّ جعلتا تطنّان. وفجأة عبَر أمرٌ ما مُثلّجٌ، صُعُداً، ساقَيّ العاريتَين.

هو ذا القفل يصرّ من دون ضجيج. من المفروض أن يكون هذا الضّيفُ المقلِق الآن لصق الباب. أنبأني تيار هوائيّ خفيف لامسَ بنان قدميّ أنّ الباب الخارجيّ قد فُتح، بيد أنّ أستاذي وحده يملك مفتاح مسكني. لكن، إن كان هو فلمَ كل هذا التّخاذل وكل هذه الغرابة في سلوكه؟ هل هو مُنشغل بي ويُريد أن يعرف حالي؟ ولماذا يتردّد الآن هذا الضّيفُ المقلق، في الخارج، على المدخل، فصوت الخطو المتردِّد والمسحوب كان قد سكن فجأة؟ كنت أنا نفسي قد سكنتُ من الخوف وطفقتُ ثابتاً في مكاني. هُيّئ لي أنّني سأصرخ، لكنّ شيئاً مُعَجّناً التصق بحنجرتي. أردت أن أفتح الباب، لكن قدمَيّ ظلّتا بلا حراك وكأنّهما مُسمّرتان في الأرضية. وحده مِغلَاقٌ بسيط يفصل الآن بيننا؛ بين هذا الضّيف المقلق وبيني أنا، لكن لا أحد منّا تقدّم بخطوة نحو الآخر.

عندئذٍ دقّت السّاعة دقّةً واحدة. هي الحادية عشرة وربع، فجعل صوتها حدّاً لخدري وفتحت الباب.

وبالفعل، كان أستاذي ثمّة حاملاً شمعة في يده. توّج تيارُ الهواء الذي أحدثه انفتاحِ الباب فجأة اللّهبَ بلون أزرق، فانفصل عن طيف أستاذي ظلّه العملاق والمرتعش خلفه كأنّه مرتعب، فجعل، كمثل رجل سكران، يتمايل على الجدار ذات اليمين وذات الشّمال. غير أنّ أستاذي بدوره صدرت عنه حركة عندما رآني؛ انثنى على نفسه، كرجل فوجئ في نومه بهبّة ريح غير منتظرة فسحب عليه لا إرادياً لحافه مُرتعشاً. تقهقر بعد ذلك، بينما كانت الشّمعة في كفّه تترنّح، فتتساقط منها بضعُ قطرات.

كنت أرتعش، مُصاباً بأقصى درجات الرّعب. لم أستطع أكثر من تمتمة: «ما بك؟» فنظر في وجهي دون أن ينبس. هو أيضاً كان أمرٌ ما يسلبه الكلام. وضع أخيراً الشّمعة على الدّولاب فهدأ على الفور لعِبُ الظّلال التي كانت تطفو في الفضاء حولنا كأنّها خفّاش. تمتم في الأخير: «كنت أريد. كنت أريد. . .».

خانه صوته من جديد. كان هنا، واقفاً، عيناه مُنكّستان، كمثل لصّ ضُبط مُتلبّساً بسرقته. هذا القلق وهذه الوضعية التي انوجدنا فيها، أنا مُرتدياً قميصاً أرتعش من البرد، وهو مُنثنياً على نفسه وشاحباً من الخجل، كانت حقّاً غير مُحتملة.

وفجأة تحرّك الشّبح الهزيل. اقترب منّي. سُلّطت عليّ

بسمة شرّيرة وحيوانية، بسمة كانت تلمع كأنّها تهديد، مُقتصرة على عينيه، بينما كانت شفتاه مزمومتين - سُلّطت عليّ مصحوبة بقهقهة، وكأنّها قناع غريب، فظلّت لحظة وكأنّها جامدة؛ ثمّ انبثق صوت مُسنّن كمثل لسان الأفعى الأشرم: «كنت أريد فقط أن أقول... إنّ من الأحسن التّخلي عن التّخاطب بصيغة الإفراد... سـ.. سـ... سيكون أمراً غير ملائم بين مُهرٍ[1] وأستاذه.. أتفهم... يجب الاحتفاظ بالمسافة بيننا... بالمسافة. بالمسافة».

كان يرمقني، في الآن نفسه، بنظرة شرّيرة عدوانية وبكراهية، كأنّه مِنفَخ، حتى إن كفّه تشنّجت على الرغم منه فصارت أصابعها شبيهة بالمخالب. صدرت عنّي حركة تراجع إلى الخلف مترنّحةٌ. هل كان مجنوناً؟ هل كان فاقداً عقله سكرانَ؟ كان هنا، أمامي، ضاغطاً قبضته وكأنّه يُريد أن يرتمي عليّ أو أن يضربني على وجهي.

لكنّ هذا الموقف الفظيع لم يدم إلّا لحظة، فجعلت هذه النّظرة العدوانية تنسحب بسرعة تحت جفنيه. التفتَ وتمتم بأمر شبيه بالاعتذار وأمسك بالشّمعة. وكمثل جنّي أسود مضغوط تحرّكَ الظّل وقد طُوي من على الأرضية متقدّماً البروفيسور مُتزوبعاً نحو الباب. ثم انصرف هو أيضاً وراءه

---

(1) يرد في نص زفايغ لفظ (Mulus)، وهو اختصار لـ(Famulus) (الخادم أو العبد). لكنّ اللاتينية تُتيح لعباً بالكلمات تغدو معه (Mulus) هي البغل وهي أيضاً الغبي والحمار.

قبل أن تُسعفني قدرتي على العثور على كلمة واحدة. انغلق الباب بعنف وجعل السُّلّم يصرخ بتثاقل وألم تحت خطواته التي بدت لي مُتسرّعة.

لن أنسى هذه الليلة. تناوب عليّ بوحشية غضب بارد وضيق حارق مكسوّ خيبة أمل. كانت أفكاري تعبر ذهني مثل صواريخ مُنطلقة في كلّ الاتّجاهات. لماذا يُصرّ على تعذيبي بهذه الطريقة؟ كنت أتساءل وسط العذاب الذي يلتهمني. لماذا يكرهني إلى هذه الدّرجة، حتى إنّه كلّفَ نفسه ليلاً أن يصعد طُرّاً السُّلّم، خفية، فقط كي يقذف في وجهي بهجوم مثل هذا، بكلّ هذا القدر من العدوانية؟ ما الذي اقترفته في حقّه؟ ما الذي يلزمني الآن فعلُه؟ كيف يُمكنني تهدئته ما دمت أجهل فيمَ جرحته؟ ارتميت على الفراش مُتحرّقاً، ثمّ نهضت، ثمّ عاودت من جديد الانحشار تحت اللّحاف، لكنّ هذه الصّورة الشّبحية كانت تنتصب باستمرار أمامي: يصل أستاذي خلسة ويتبلبل بحضوري، برفقة هذا الظل المرعب المترنّح على الجدار، بغرابة وبإلغاز.

عندما أفقت صباح اليوم الموالي، بعد هجعة غير عميقة، أقنعت نفسي في البداية أنّني إنّما رأيت حلماً، لكنّ آثار الإستيارين الذي سال من الشّمعة كانت لا تزال ملتصقة على الدّولاب، مُستديرةً صفراءَ. كما أنّ ذكرايَ المرعبة كانت لا تزال ماثلة وسط الغرفة المشمولة بالنّور، غيرَ قادرةٍ على منع

نفسها من أن تعرض أمامي باستمرار ضيفَ هذه الليلة الذي كان قد انزلق إليها مثل سارق.

لم أخرج طوال الصباح. كانت الخشية من أن ألتقي به تُصيب كلّ قواي بالشّلل. أردت أن أقرأ وأن أكتب، لكنّني لم أقدر على شيء. كانت أعصابي تبدو وكأنّها مُلغَّمة، مُهدّدة كلّ حين بالانفجار في تشنّج قويّ وفي بكاء وصراخ. كنت أرى أصابعي ترتعش بغرابة وكأنّها أوراق شجرة، عاجزاً عن الاحتفاظ بها ساكنة، وينثني كاحلايَ كما لو كانت أعصابهما قد تمزّقت. ما العمل؟ ما العمل؟ ظللت أسأل نفسي إلى أن أصابني الإنهاك. طفِقَ الدّم يغلي في صُدغَيّ ويصبغ نظرتي باللّون الأزرق. لكن بالخصوص، لا خروجَ ولا نزول ولا لقاءَ به صدفة قبل أن أسترجع ثقتي في نفسي، وأن تستردّ أعصابي قوتها! ارتميت على السّرير جائعاً ودون اغتسال، مُبلبلاً محيّراً، فجعلت حواسّي من جديد تُخمّن ما كان يحدث خلف الجدار المبنيّ رقيقاً. أين هو الآن، وما الذي يصنعه، وهل هو مستيقظ مثلي فاقداً للأمل كحالي أنا؟

حلّ مُنتصف النهار، وكنت بعدُ مضطجعاً في الفراش أتحرّق في ضيقي، فسمعت أخيراً خطواً على السُّلَّم. استُنفرت أعصابي كلّها. لكنّ هذا الخطو كان خفيفاً وغير متوتّر، يصعد بإيقاعه السّريع، على ما يبدو، درجتين درجتين، وهي ذي كفّ تطرق الباب. قفزت من مكاني وسألت دون أن أفتح: «من في الباب؟ - لكن لماذا لا تأتي للغداء؟» أجابت

زوجته، بنبر غاضب قليلاً. «هل أنت مريض؟ - كلّا، كلّا، غمغمتُ بانزعاج، سآتي، سآتي حالاً». فلم يعد أمامي سوى ارتداء ملابسي وأن أنزل، لكنّني اضطررت للاتّكاء على الدرابزين، لفرط ما كانت أطرافي خائرة.

ولجتُ غرفة الطّعام، فوجدت زوجة أستاذي تنتظرني على المائدة أمام أحد الصّحنَين. حيّتني وآخذتني دون حدّة على أن جعلتها تضطرّ للذهاب للبحث عني. أمّا مكانه هو فكان فارغاً. شعرت بالدّم يصعد إلى رأسي. ما الذي يعنيه هذا الغياب غير المنتظر؟ هل هو يتوجّس لقاءنا أكثر ممّا توجّسته أنا؟ هل يخجل من ذلك، أم ربّما هو لا يُريد من الآن فصاعداً أن يجلس معي إلى نفس المائدة؟ فقدّرت في الأخير أن أسأل ما إن كان البروفيسور لن يحضر.

نظرت إليّ مندهشة: «ألا تعرف إذاً أنّه قد استقلّ القطار هذا الصّباح ومضى؟ - مضى؟ -غمغمتُ- إلى أين؟» تقلّص مُحيّاها على الفور: «زوجي لم يتكرّم بإخباري. فلربّما كانت إحدى خرجاته المعلومة». ثمّ التفتت نحوي فجأة قائلة بحيوية وبنبر متسائل: «لكن، ألستَ على علم حقّاً بانصرافه؟ هو صعد، مع ذلك، هذه اللّيلة إلى مسكنك، وكنت اعتقدت أنّه فعل ذلك ليودّعك. هذا غريب، حقّاً غريب... أن لا يكون قد أخبرك بشيء، أنت بدورك.

- يُخبرني أنا!» قلت، غير قادر على شيء باستثناء هذه الصّرخة. ووسط خجلي والالتباس الذي عمّني، كانت هذه

الصّرخة قد أفشت كلّ ما كانت السّاعات الأخيرة قد جمّعته في داخلي. وفجأة حدث ما يُشبه الانفجار: بُكاء وأنين متشنّج وغاضب. كنت أبكي، أو بالأحرى كان فمي المكشّر يُفرِغ كلّ المعاناة التي تراكمت في داخلي فأغرقتها في دموعي الهستيرية. ضربتُ المائدة بقبضتَي يديّ بعنف، وتركتُ - وكأنّني طفل صغير سريع الغضب وخارج عن طوره، وجهه يسيل بالدموع- ما كان يصطخب في داخلي منذ أسابيع مثل العاصفة، ينفجر بعنف. وبينما كانت التّدفّقات المسترسلة لهذه العاصفة تُريحني، كنت، في نفس الآن، أشعر بخجل بلا ضفاف من أن أكون قد فضحت نفسي هكذا أمامها.

«ماذا دهاك بحق الرّب!» قالت وهي تنتصب واقفة فجأة، ذاهلة، وأتت نحوي وقادتني من المائدة إلى الأريكة: «اضطجع هنا، واهدأ». ربّتَتْ كفَّيّ ثم مرّرت كفّها على شعري، بينما استمرّت اهتزازات متشنّجة تخضّ جسدي المرتعش. «لا تُزعج نفسك يا رولاند. إنْأَ بنفسك عن الانزعاج، فأنا على علم بهذا كلّه، لأنّني كنت استشعرته قادماً». كانت لا تزال تُربّت على كتفي، لكنّ صوتها سرعان ما غدا قاسياً: «أنا نفسي أعرف كيف يتصرّف ليوقع النّاس في البلبلة. أنا أعرف ذلك أكثر من أيّ شخص آخر. لكن صدّقني أنّني كنت أهمّ دائماً بتحذيرك عندما كنت أراك تعتمد عليه كلّياً، في حين أنّه هو نفسه يُعوزه التّوازن. أنت لا تعرفه. أنت لا ترى ما يحدث أمامك لأنّك مجرّد طفل. أنت لا

تشكّ في شيء، ولا حتّى اليوم، لا بل حتّى في هذه اللّحظة. أم تُراك جعلت اليوم، للمرّة الأولى، تفهم بعض الفهم؟ إن كان ذلك، فسيكون فيه خير له ولك أنت نفسك».

ظلّت مائلة عليّ بحنان، وبدا لي أنّ كفّيها وكلماتها التي تُسكّن ألمي، كانت قادمة من أعماق ناعمة. أشعرني بالارتياح أن عثرت أخيراً، ومن جديد، على نفحة تعاطف، وأن أحسست بالقرب منّي بكفّ امرأة حانية تكاد تكون أمومية. وربّما أيضاً قد أكون حُرمت من ذلك زمناً طويلاً، فتخفّفت معاناتي من أن رأيت الآن، عبر حجاب الحزن، هذا الاهتمام الذي توليني إياه امرأة منشغلة بي بحنان. لكن كم كنت، رغم كلّ شيء، أعاني من الالتباس، وكم كنت خجِلاً من فضحي لسرّي في خضمّ هذه الأزمة، ومن تسليمي نفسي هكذا، في حالة اليأس التي اجتاحتني! أطلقت العنان من جديد، على الرغم مني، وأنا أنهض بصعوبة، لموجة من الصّراخ المتهافت والمتشنّج في آن، مُبدٍ شكواي من كلّ ما اقترفه في حقّي، مُتحدّثاً عن كيف كان يصدّني عنه ويضطهدني ثمّ يعود ويجلبني، وكيف كان يقسو عليّ دونما سبب أو داعٍ، هذا الجلّادُ الذي كنت أرتبط به بحبّ، رغماً عنّي، وأكرهه مع حبّي له. كانت أعصابي قد بدأت من جديد تُستثار، ما جعلها تعمل ثانية على تهدئتي، ومن جديد دفعتني يداها الرّقيقتان بلطف إلى الأريكة التي كنت قد نهضت منها بتصميم. صرت في الأخير أكثر هدوءاً، فصمتت وجعلت تُفكّر هادئة، فخمّنت

أنّها تفهم هذا الذي يحدث كلّه ربّما أكثر منّي أنا نفسي.

استغرقنا معاً في صمتنا دقائق، ثمّ نهضت المرأة الشّابة: «حسنٌ، لقد ظهرت بمظهر الطّفل وقتاً طويلاً، وعليك الآن أن تصير رجلاً. اجلس إلى المائدة وتناول طعامك. لا شيءَ في هذا مأساويّ، هو مجرّد سوء تفاهم سينقشع -وبما أنّني كنت قد قمت بحركات ممانعة أضافت بحيوية: - سينقشع لأنّني لن أتركك مدّة أطول تُرهق نفسك وتُبلبلها بهذه الشّاكلة. يجب وضع حدّ لهذا كلّه، وعليه في آخر المطاف أن يتعلّم كيف يتحكّم في نفسه. أنت أكثر طيبة من أن تقدر على الاضطلاع بمغامرات مثل هذه. سأُحدّثه في الأمر، عوّل عليّ. والآن إلى المائدة».

نفّذت ما أمرت به خجِلاً مسلوب الإرادة. جعلت تتحدّث بسرعة وبتدفّق عن أمور هامشية، فاعترفت لها بالجميل، في سرّي، بأن بدت غير معيرة اهتماماً لهذا الانفجار الذي كان أقوى منّي، فأعطت الانطباع أنّها قد نسيته سلفاً. قالت لي بصوت واثق إنّ من المنتظر أن تقوم غداً صباحاً، برفقة البروفيسور W. وخطيبته، بنزهة على ضفّة بحيرة في الجوار وإنّ عليّ أن آتي معهم وأن أنتزع نفسي من الكتب لأتسلّى، مُضيفة أنّ ضيقي ناتج عن إرهاقي وعن إثارتي الزّائدة لأعصابي، وأنّني ما أن أجد نفسي في الماء أو في الطّريق، سيستردّ جسدي توازنه.

وعدت بمرافقتهم بدل أن أبقى بالأحرى وحيداً في الغرفة

مع هذه الأفكار الحائمة في العتمة. «وحتى هذا المساء لا تبقَ محبوساً. اذهب وتجوّل واجرِ وتسلَّ»، ألحّت أيضاً. «غريب كيف تخمّن مشاعري الأكثر حميمية»، فكّرتُ، «وكيف تعرف دائماً، هي الغريبة عنّي مع ذلك، ما أحتاج إليه وما يسوؤني، بينما هو، رجل المعرفة، يتجاهلني ويجرحني». وعدتها بأن أسمع كلامها، فصنعتُ لها، وأنا أُنصت إليها بامتنان، وجهاً جديداً: ما كان يظهر فيه ساخراً وغير مناسب فيمنحها شكل فتى وقحٍ وسيّئ التّربية، عُوّض بنظرة حانية ومواسية، فلم يسبق لي أبداً أن رأيتها بهذه الجدّية؟ «لماذا لم يكن هو ينظر إلي بهذه الطّيبة؟ تساءل في داخلي شعورٌ ملتبس. لماذا لا ينتبه أنّه يُصيبني بالسّوء؟ لماذا لم يسبق له أن وضع على شعري أو في كفّي يديه المنقذتين والحانيتين؟» فقبّلت بامتنان يد هذه المرأة، لكنّها انتشلتها منّي بحيوية تكاد تكون عنفاً. «لا تُزعج نفسك»، ألحّت من جديد بصوتها الدّافئ.

ثم كسى شفتيها تعبيرٌ قاسٍ وقالت بصوت خافت وهي تنتصب واقفة: «صدّقني، إنّه لا يستحق».

هذا الكلام المُوَشوَش بطريقة تكاد تكون غير مسموعة، آلم من جديد قلبي الذي كان على وشك أن يهدأ.

إنّ ما أقدمتُ عليه ما بعد الظّهر وفي المساء لهو من السّخف ومن انعدام النّضج بحيث أنّني بقيت أشعر منه، سنوات، بالخجل وإنّ حتى رقابة داخلية كانت تعمل على

كبت أدنى ذكرى ترتبط به. أمّا اليوم فما عدت أكترث بهذه السّخافات، بل إنّني قد صرت، على العكس من ذلك، أفهم الآن جيّداً هذا الفتى العجول الذي كنته والذي كان يسعى في حمأة شغفه، وبعنف، إلى أن يُخفي حتى عن نفسه عدم وضوح أحاسيسه.

أراني كأنّني في طرف ممرّ طويل جدّاً، كما لو عبر تلسكوب؛ أرى هذا الفتى اليائس والمُمزَّق يصعد إلى غرفته دون أن يكون على علم بما سيقترفه في حقّ نفسه. سارع فجأة إلى سترته ثمّ خطا خطوة أخرى ذاهباً للبحث في أعماق كيانه عن حركات تصدر عن تصميم قويّ، وفجأة وبخطى سريعة وقوية، ها هو ذا في الشّارع. نعم إنّه أنا، فأنا أتعرّف إلى نفسي وعلى علم بكلّ الأفكار التي تُراود هذا الطّفل المسكين المنتمي إلى تلك المرحلة، الغبي والمبلبل. أنا أعرف ذلك؛ تسمّرت فجأة أمام المرآة وخاطبت نفسي: «أنا أسخر منه، وليأخذه الشّيطان! لماذا أُعذّب نفسي بسبب هذا العجوز الأحمق؟ إنّها على صواب؛ لنبتهج ولنتسلَّ أخيراً. هيّا إلى الأمام!».

تلك في الحقيقة هي الطّريقة التي نزلتُ بها إلى الشّارع، فكان ذلك بمثابة خضٍّ لنفسي أسعى به للتحرّر من ضيقي، وعدوٍ سريع وهروب جبان وأعمى حتى لا أعترف أنّ هذه الثّقة المبتهجة لم تكن حقّاً بذلك القدر من الابتهاج وأنّ كتلة الثلج الثابتة والثقيلة على الدوام كانت لا تزال جاثمة على

قلبي. لا أزال أتذكّر كيف كنت أمشي، عصاي القوية مضغوطة في كفّي، وأنا أنظر مباشرة في عيني كلّ طالب أقابله. كانت تسكنني في أعماقي رغبة متأجّجة في الشِّجار مع أيّ كان، وفي أن أُفرغ كيفما اتّفق، وعلى أوّل قادم، غضبي المصطخب في داخلي توّاقاً للخروج. لكن لحسن الحظّ لا أحد تكرّم بالالتفات إليّ. عندئذٍ يمّمت شطر المقهى الذي كان الطّلبة رفاقي في النّدوة يجتمعون فيه باستمرار، مُصمّماً العزم على الجلوس إلى مائدتهم دون أن أكون مدعواً إليها، وأن أعثر في أدنى سخرية منهم على مبرِّر للاستفزاز. لكن هنا أيضاً لم تُقابِل رغبتي في الصّراع إلّا الفراغ، لأنّ الجوّ الجميل هذا اليوم كان قد دفع بغالبيتهم إلى الخروج للتنزّه، والطّالبان أو الثّلاثة الذين وجدتهم حيّوني بأدب قاطعين الطّريق على غضبي النّاقم. ضقت بالمقهى فنهضت والتحقت ببناية سيّئة السّمعة للغاية تقع في أطراف المدينة، حيث تتزاحم حثالة مجتمع المدينة الصّغيرة من محبّي المتعة، للاستماع إلى ضجيج أغانٍ شعبية مُحاطين بقناني الجعة وبالدّخان. شربت بسرعة كأسين أو ثلاثاً واستدعيت إلى مائدتي بغياً مع صديقتها الجّافة وغير الجميلة والمتشبّهة بنساء المجتمعات الرّاقية، فتظاهرت ببهجة خبيثة حتّى أُلفت إلي الانتباه. كان سكّان المدينة الصّغيرة يعرفونني جميعاً، ويعرف كلّ واحد منهم أنّني مُريد البروفيسور، وهما أيضاً كانتا تُرِيَانِ بملابسهما الصّفيقة وبسلوكهما من تكونان. كنت أُبدي هكذا

ابتهاجي الأخرق والمثير للسّخرية مُعرّضاً نفسي للخطر، وهو بصحبتي (كما كنت أفكّر في ذلك بغباء). هل بإمكانهم أن يعقلوا -قلت مخاطباً نفسي- أنّني أهزأ به، وأنّني لا أعيره اهتماماً! ثمّ تودّدت أمام الجميع لهذه المخلوقة ذات الثّديَين الضّخمَين، بوقاحة شديدة ومن دون أدنى مهارة. حصل ذلك بسبب سكر الشّر الكامن فيّ والمتأجِّج والذي سيغدو بعد حين سكراً حقيقياً، لأنّنا كنّا نشرب كلّ شيء، ونخلط بفظاظة الخمرة بماء الحياة وبالجعة، كما كُنّا نُكثر من الحركات القوية حتى إنّ المقاعد حولنا انقلبت وتراجع المجاورون لنا بحذر. لكنّني لم أكن أشعر بالخجل، بل العكس؛ فهكذا سيعلم -قال لي رأسي الأحمق- وهكذا سيرى كم هو عندي بلا أهمية. آه! أنا لست حزيناً ولا أشعر بالمهانة، بل بالعكس: «خمر! خمر!» قلت وأنا أضرب على المائدة بقبضة يدي حتى اهتزّت الكؤوس. خرجت في الأخير مع المرأتين، مُمسكاً بالذراع اليمنى لإحداهما وباليسرى للأخرى، فمشينا في الشّارع الكبير، حيث كانت النّزهة المعتادة للساعة التاسعة مساءً قد جمّعت الطّلبة والطّالبات، والمدنيين والعسكريين من أجل جولة سائغة. شكّلنا ثُلاثياً مترنّحاً أثقلته الخمرة، فسرنا في الرّصيف مُحدثين صخباً قوياً حتى إنّ رجل أمن اقترب منّا غاضباً وأسرّ لنا بحميمية أن نُحافظ على الهدوء. أمّا ما حدث بعد ذلك فأنا غير قادر على وصفه بدقّة: يُعتّم ذكرايَ بُخار خمر أزرق، فلا أعرف إلّا أنّني بعد أن طفح بي

الاشمئزاز من المرأتين المخمورتين، وبعد أن لم أعد أنا نفسي أتحكّم في حواسي إلّا بصعوبة، تخلّصت منهما بنفحهما بعض المال، فشربت في مكانٍ ما قهوة وخمرة كونياك، ثمّ ألقيت خطبة هجائية عصماء في حقّ الجامعة، مُهاجماً أساتذتها، ما أبهج الأطفال الذي كانوا يُحيطون بي. ثمّ أردت أن أذهب إلى مبغى، مدفوعاً بالغريزة المظلمة بأن أُوسّخ نفسي أكثر وأن أحدث له ضرراً -وهي فكرة غبية أملاها التباسُ غضب متأجّج- لكنّني لم أعثر على الطّريق إليه، فعدت أخيراً إلى بيتي مترنّحاً، عكر المزاج. استطاعت كفّي بصعوبة أن تفتح الباب جسّاً، وبالكاد استطعت الانجرار على الدّرجات الأولى للسُّلّم.

لكن، ما أن صرت أمام بابه حتّى انجلى سُكري فجأة كما لو أنّ رأسي قد أُغطس في ماء مُثلّج. وفي صحوي رأيت في وجهي المعتكر صورةَ حُمقِي الغاضب والعاجز. نكّست رأسي من خجلي وانسللت بخطوات صامتة إلى غرفتي حتّى لا يسمعني أحد، وأنا أتضاءل حتّى صرت كمثل كلب كيلت له الضربات.

غططتُ في نوم عميق؛ وعندما استيقظت كانت الشّمس قد اجتاحت الأرضية وجعلت تتسلّق شيئاً فشيئاً حتّى أدركت حاشية سريري، فنهضت قافزاً. عادت ذكرى الأمس واضحة إلى رأسي المتألّم، لكنّني استبعدت كلّ إحساس بالخجل،

لأنّني ما كنت عدت أُريد أن أشعر بعد الآن بالخجل. وبالفعل، فالخطأ خطأه -أردت أن أُقنع نفسي- الخطأ خطأه وحده إن كنت أتصرّف بهذه الصّفاقة. هدّأت نفسي مُعتبراً أنّ ما حدث بالأمس لم يكن سوى تسرية طالب عن نفسه، وهي من حقّ شخص ظلّ يشتغل أسابيع وأسابيع، لا همّ له إلّا العمل. لكنّ تبريري لم يُرحني فنزلت للبحث عن زوجة أستاذي، شاعراً بالخجل وغير قادر على السّيطرة على نفسي، مُتذكّراً وعدي لها بالأمس بمرافقتهم في نزهتهم.

ومن غريبٍ أنّني ما كدت ألمس مقبض بابه حتّى أضحى من جديد حاضراً فيّ، على التّو، وبرفقته، هذا الألم الحارق الغبيّ والممزّق؛ هذه الخيبة القوية. طرقت برفق فظهرت زوجته أمامي ناظرة في وجهي برقّة غريبة. «ما هذه السّخافات التي اقترفتها يا رولاند؟» سألت، لكن مُشفقة أكثر ممّا مُؤاخِذة، «لماذا تُنهك نفسك بهذه الطّريقة؟». بهتّ ثابتاً في مكاني. لقد سمعت هي أيضاً بسلوكي الأخرق. لكنّها سُرعان ما وضعت حدّاً لحيرتي: «اليوم سنتصرّف بتعقّل. سيأتي البروفيسور W في العاشرة برفقة خطيبته، ثمّ سنستقلّ القطار وسنذهب لنجدّف ونعوم ولنطلق رصاصة الرّحمة على كلّ الحماقات». تجرّأتُ أيضاً، بصوت قلق على السّؤال سدى إن كان أستاذي قد عاد. نظرت إليّ دون أن تُجيب، لأنّني كنت أعرف أنا نفسي أنّ هذا السّؤال لا طائل من ورائه.

أقبل البروفيسور على السّاعة العاشرة تماماً. هو أستاذ فيزياء يعيش، لكونه يهودياً، في منأى عن أساتذة الجامعة، لا تربطه علاقة إلّا بالقليل منهم، وقد كان الوحيد في الحقيقة الذي يأتي لمجالستنا في وحدتنا. أتى مصحوباً بخطيبته أو على الأرجح بعشيقته، وهي فتاة ينفتح فمها باستمرار لتضحك، ساذجة وعلى قدر من الغباء، لكنّها كانت، بسبب من ذلك كلّه، تملك كلّ ما يجب من أجل انفلاتٍ مرتجل مثل هذا. ذهبنا في البداية، عبر القطار، آكلين شاربين ومثرثرين ضاحكين، إلى شاطئ بحيرة صغيرة تقع في الجوار. كانت أسابيع العمل المضني التي عشتها لتوّي قد أفقدتني عاداتي حتى إنّ ما كنّا نخوض فيه أثناء هذه المحادثات كفاني كي أثمل وكأنّه خمرة خفيفة مُشهية. لقد أفلح رفقائي حقّاً بأحاديثهم الفظّة وبمبالغاتهم الطّفولية في أن يُبعدوا أفكاري عن ذلك الجوّ المعتّم والمضطرب الذي كانت تحوم حوله دائماً مُدمدمة. وما كدت أشعر من جديد بعضلاتي تتّصل بالهواء أثناء قيامي فجأة بسباق مع الفتاة، حتّى عدت الفتى الحيَّ والخالي البال الذي كنته من زمان.

استأجرنا على حاشية البحيرة قاربين. كانت زوجة أستاذي تُمسك بمقبض دفّة قاربي، بينما كان البروفيسور يُحرّك سلفاً المجدافين مع صديقته. وما أن أضحينا في المركبَين حتّى شعرنا بالرّغبة في التّسابق وفي أن نتجاوز بعضنا بعضاً مرّة بعد مرّة، وهو الوضع الذي كنت أجد نفسي فيه الأقلّ

حظّاً لأنّهما يُجدّفان معاً بينما كنت أنا أفعل ذلك وحدي. لكن بما أنّني خلعت سترتي بسرعة، ولكوني ذا دربة في هذه الرّياضة، كنت أجدّف بقوة وبضربات حاسمة، حتّى إنّني صرت أتقدّم دائماً المركب الآخر. كانت تصدر من الجانبين باستمرار كلمات ساخرة، بهدف تحفيزنا لأنفسنا. كنّا نثير بعضنا البعض، دون أن نأبه بحرارة شهر يوليو الحارقة ولا بالعرق الذي يتصبّب على أجسادنا شيئاً فشيئاً، كنا نُسلّم أنفسنا عن طيب خاطر، وكأنّنا محكومون لا يُشقّ لهم غُبار، إلى جنّي الرياضة ورغبةِ الفوز على الخصم. صار الهدف قريباً في الأخير، وهو لسانٌ أرضي صغير مُشجر، يقع وسط البحيرة. بذلنا مجهوداً جبّاراً إضافياً، فكان مركبنا هو أوّل من أطلق صريره باحتكاكه بالرّمل، وسط فرح مُرافقتي بالفوز، لأنّها هي أيضاً كانت مأخوذة بلذة تجاوز خصمينا. نزلت مُحترقاً أتصبّب عرقاً مُسْمرّاً بالشّمس التي لم أعتد عليها وبالغليان الشّديد لدمي وبفرحي بالفوز. كان قلبي يخفق بعنف بين ضلوعي وقد التصقت ملابسي بجسدي لفرط ما كنت أتعرّق. ولم تكن حال البروفيسور أحسن من حالي، لكن بدل أن تُقدَّم لنا التّهاني، البروفيسور وأنا بوصفنا بطلين مثابرين، صرنا عرضة لضحكات استهزاء طويلة لا تُناسب حالنا، أطلقتها في وجهينا المرأتان بسبب انقطاع نَفَسنا وحالنا الدّاعية للرثاء. لكنّهما منحتانا في الأخير لحظة استراحة نسترجع بها انتعاش جسدينا. ووسط ممازحات لا تنتهي ارتُجلت «حُجرتنا»

استحمام، واحدة للرجال وأخرى للإناث، على يمين أيكة وعلى يسارها. ارتدينا بسرعة ملابس السّباحة، فكانت تظهر فجأة خلف الأشجار ملابس بيضاء وأذرع عارية. وبينما كنّا نُنهي، أنا والبروفيسور، استعداداتنا، كانت المرأتان تمرحان سلفاً سعيدتَين في الماء. انطلق البروفيسور على الفور في أثرهما لأنّه كان أقلّ تعباً منّي ما دُمت كنت جدّفت وحدي ضدّهما، وكنت قد فعلت ذلك بقوّة فكنت أشعر أنّ قلبي لا يزال يخفق بسرعة بين ضلوعي. اضطجعت في البداية مرتاحاً تحت الظّل وجعلت أرقب بلذّة السُّحُب فوق رأسي، مُستمتعاً وملتذّاً بالغمغمات الرّقيقة للتّعب في دمي المصطخب.

لكنّهم بدأوا بعد بضع دقائق يُطالبونني بقوة بالقدوم إلى الماء. «إلى الأمام يا رولاند! مسابقة سباحة! جوائز مخصّصة للسّباحين وجوائز للغطّاسين!». لم أبرح مكاني، وقد بدا لي أنّ بإمكاني أن أبقى على هذه الحال ألف سنة، الجسد مُرقّش بخيوط الشّمس المتسلّلة عبر الأوراق، ومُنتعشاً في الآن نفسه بالهواء الذي يُلامس جسدي برقّة. لكنّ ضحكة جديدة أقبلت في اتّجاهي في حين كان صوت البروفيسور يصيح: «هو مُضرِب! لقد أفرغنا طاقته كلّها! اذهبا للبحث عن ذلك الكسول». وبالفعل، سمعت أصوات خطى تقترب، ثمّ صياحاً قريباً منّي: «إلى الأمام يا رولاند! مسابقة في السّباحة! علينا أن نُقدّم لهما درساً، لهما معاً». لم أُجبها، مُستمتعاً بتركها تبحث عنّي. «لكن أين أنت؟»، كان الحصى يُصدي وساقان

عاريتان تعبران الشّاطئ، وفجأة صارت أمامي بلباس السّباحة الملتصق بجسدها الرّقيق المخنّث. «آه! ها أنتَ ذا أيها الهشّ! لكن انهض الآن فالآخران يكادان يُدركان شاطئ الجزيرة، هناك قبالتنا». كنت مُضطجعاً على ظهري مُرتخياً، فمدّدت أطرافي بكسل: «الجوّ هنا أحسن بكثير، سألتحق بكم لاحقاً».

«لا يُريد المجيء»، صاحت بصوت عالٍ وضاحك، في كفّها التي صارت مثل قِمعٍ، في اتّجاه الجهة الأخرى من الماء. «ارمي بذلك المتبجّح في الماء» أجاب البروفيسور من بعيد. «هيّا، تعال» ألحّت نافدة الصّبر، «لا تجعلهم يسخرون منّي». لكنّني لم أزد على أن تثاءبت بكسل. عندئذٍ كسرَتْ قضيباً من شُجيرة، غاضبة ومتسلّية في نفس الآن. «إلى الأمام!» كرّرت بقوة ضاربة إيّاي، لتحفيزي، بالقضيب على ذراعي. اهتززت في مكاني لأنّها كانت قد ضربتني بقوة فظهر خطّ رفيع أحمر كالدّم على ذراعي. «أنا أرفض الآن أكثر ممّا سبق» قلت، نصف مُمازح ونصف غاضب. لكنّها أمرت حينئذٍ بغضب حقيقي: «هيا، فوراً!»، وكما لو تحدّياً، لم أتحرّك من مكاني، فوجّهت لي من جديد، بقوة أكثر هذه المرّة، ضربة قضيب لاسعة ومؤلمة. قفزت على الفور غاضباً كي أنتزع القضيب من يدها. تقهقرت لكنّني أمسكت بذراعها. وفي هذا الصّراع الذي كان الرّهانُ فيه هو القضيب، اقترب جسدانا العاريان بعفوية من بعضهما البعض. عندما أمسكت بذراعها

وضغطت على معصمها لإرغامها على إرخاء قبضتها عن القضيب، وعندما استسلمت وتقوّست إلى الخلف، سُمع صوت: كان الحبل الرّقيق للباس البحر قد انقطع على كتفها فانفتح الجانب الأيسر مُظهراً جسدها فتدبّبت في اتّجاهي حلمتها الوردية النّافرة. ودون أن أرغب في ذلك، توجّه بصري إلى حلمتها، ما لا يزيد عن ثانية، لكنّها كانت كافية كي أتبلبل. أرخيت قبضتي عن يدها الأسيرة، مُرتعشاً ومنزعجاً. انقلبت هي مضرّجة كي تُصلح كيفما اتّفق الحبل الممزّق بدبّوس شعر. وكنت أنا ثمّة واقفاً لا أعرف ما أقول. هي بدورها ظلّت صامتة، وانطلاقاً من تلك اللّحظة ولد بيننا قلق صامت ومخنوق.

«هيه... هيه... أين أنت؟» صاحت الأصوات القادمة من الجزيرة الصّغيرة. «أجل، أنا قادم حالاً»، أجبتُ بسرعة. ومن سعادتي بهروبي من التباسٍ جديد، انقذفت دفعة واحدة في الماء. بعد ضربات قليلة من ذراعَيّ، كان ابتهاجي المتحمّس باندفاعي الذاتي، وشفافيةُ العنصر الغريب (الماء) وبرودته، وأيضاً دمدمةُ دمي وصفيره؛ كان ذلك كله قد أُغرق تحت موجة لذّة أقوى وأطهر، وسرعان ما أدركت الآخرين. تحدّيت البروفيسور الهزيل مرّات متعدّدة وكان النّصر حليفي كلّ مرّة، ثم عدنا سباحة إلى اليابسة. كانت هي قد ارتدت ملابسها سلفاً ووقفت تنتظرنا لنقوم فوراً بنزهة سائغة مُحمّلين

بالمؤونة التي أتينا بها معنا. غير أنّنا كنّا نتفادى، أنا وزوجة أستاذي، أن نتجاذب أطراف الحديث بيننا، لا إرادياً، رغم الممازحات البهيجة التي كنّا نتبادلها بيننا نحن الأربعة. كنّا نتحدّث ونضحك كما لو لم يكن قد حدث شيء بيننا، لكن نظراتنا، عندما تلتقي، كانت سرعان ما تتحوّل إلى جهة أخرى، فيما كنّا نُعرب عن نفس الإحساس: أن الانطباع الرّهيب النّاتج عن الحادث الجديد لم يتبدّد وأنّ كلاً منّا يُفكّر فيه بقلق ملتبس.

مرّت فترة ما بعد الظّهر بسرعة، مع القيام بجولة تجديف جديدة. لكنّ تأجّج الشّغف الرّياضي كان قد بدأ يتخلّى أكثر عن مكانه ليحلّ محلّه تعب جميل: الخمر والدّفء والشّمس التي امتصّتها أجسادنا؛ كلّ ذلك كان يتسلّل شيئاً فشيئاً حتّى يُدرك دمنا ويجعله يفور أشدّ احمراراً. كان البروفيسور وصديقته قد بدآ يسمحان لنفسيهما باقتراف حميميات صغيرة تحمّلناها على مضض، مع الإحساس ببعض الانزعاج. جعلا يقتربان أكثر فأكثر من بعضيهما، بينما كنّا نحن نلتزم بيننا بمسافة يعمرُها القلق. لكن بُعدنا عن بعضنا البعض أصبح مُلاحَظاً أكثر لأنّ الآخرَين كانا قد فضّلا، مُفعمين حيوية، أن يظلّا وراءنا وسط ممرّ الغابة، كي يتبادلا القُبل بحرّية. وعندما كنا نجد نفسينا وحيدين كان حديثنا يفتقدُ لتلقائيته. وأخيراً شعرنا أربعتنا بالسّعادة وقد استقللنا القطار؛ يُفكّر الآخران في كيفية قضاء بقية أمسيتهما الغرامية، بينما كنّا نحن قد تخلّصنا

أخيراً من الوضعيات المُزعجة التي كانت تنتج عن وجودنا وحيدين.

رافقنا البروفيسور وصديقته حتى مسكننا، فصعدنا السُّلّم وحيدين. وما كدت أدخل حتى استشعرت من جديد الأثر الملغز والمبلبل لوجوده الذي أشتهيه بقوّة. «عساه يكون عاد!»، فكّرت متلهّفاً، فقالت هي، في نفس الآن: «سنرى إن كان قد عاد». وكأنّها قد قرأت على شفتيّ هذه التّنهيدة الخرساء.

دخلنا الشقة فوجدناها فارغة. كان كلّ شيء في غرفته يُنبئ بغيابه. وبطريقة لا واعية رسَمَت حساسيتي الزّائدة في الأريكة الفارغة وجهَهُ المضغوط والمأساويّ. لكن الأوراق البيضاء لم تُمسّ، مُنتظرة مثلي. اجتاحتني مرارة الأيام السّابقة نفسها: «لماذا فرّ، ولماذا تركني وحيداً؟»، كان الغضب الغيور لا يزال يصعد بقوّة أعنف إلى حنجرتي، فيُغلي فيّ من جديد الرّغبة المشوّشة والتي لا معنى لها، في أن أقترف في حقّه أمراً ملؤه الشرّ والكراهية.

كانت المرأة الشّابة قد دخلت في أثري. «ستبقى لتتعشّى هنا، أليس كذلك؟ يجب ألّا تظلّ اليوم بمفردك». كيف عرفت أنّني كنت خائفاً من الغرفة الفارغة ومن صرير مدارج السُّلّم ومن الذّكرى التي ما زلت أجترّها؟ كانت تُخمّن كلّ شيء يحدث فيّ، وكلّ فكرة حتّى لو لم أُعبّر عنها، وكلّ تخطيط قبيح.

استبقاني خوفٌ، هو خوفي من نفسي ومن الكراهية التي تصطخب مُلتبسة في أعماقي. أردت رفض دعوتها لكنّني جَبُنت وما جرؤتُ على قول لا

دائماً ما كنت أبغض الزّنا، ليس امتثالاً لأخلاقيات بائسة أو حشمة أو فضيلة، وليس حتى لأنه سرقةٌ تُرتكب في الظّلام واستيلاء على ملك الغير، وإنّما لأنّ كلّ امرأة، في لحظات مثل هذه، تفضح كلّ ما هو سرّي عند زوجها. كلّ واحدة منهنّ ما هي إلّا شبيهة دليلة[1]، تسلب من تخونه سرّه الأكثر إنسانية لتُلقي به طُعماً زهيداً لرجل أجنبيّ. . تسلبه سرّ قوّته أو سرّ ضعفه. إنّ ما كان يبدو لي خيانة، ليس هو أنّ النساء يستسلمن من تلقاء أنفسهن وإنما لأنّهن، في غالب الأحيان، يُزحن، ليُبرّرن سلوكهن، الحجاب عن الحياة الحميمة لأزواجهن ويعرضن حميميته حين لا يكون هو يشكّ في شيء. يحدث ذلك كما لو في حلم، وأمام فضول غريب وبسمة ساخرة راضية.

---

(1) ورد في العهد القديم أنّ شمشون الإسرائيلي، القويّ فوق العادة، أحبّ امرأة اسمها دليلة، قومها هم الفلستيّون (الفلسطينيون الأوّلون)، أعداء اليهود، فطلب منها أهلها كشف سرّ قوة شمشون، فكذب عليها مرّات متعدّدة وأخبرها في النّهاية أنّ قوته في شعره الذي لم يُحلق منذ ولادته، تنفيذاً لأمر إلهي، فأمرت دليلة خادماً بحلق شعره في نومه، ففقد قوّته بالفعل، وأخذه الفلستيون وسملوا عينَيه وأخذوه إلى غزّة وسجنوه ليعمل في طحن الشّعير. -المترجم-

ليست إذاً مسألةُ كَونِي قد وَجَدتُ -في ضياعي بسبب يأسي الأعمى والغاضب- ملجأ في حضن زوجته الذي كان مليئاً في البداية بالشّفقة فقط، لكنّه سرعان ما أصبح بعد ذلك أرقّ -فأَخْلَى الشّعورُ الأوّل مكانه للثّاني بسرعة قَدَرِية- ليس هذا الذي ما زلت أعتبره حتّى اليوم الخسّة الأشدّ بؤساً التي اقترفتها في حياتي (لأنّ هذا كان قد حصل لا إرادياً فكنّا معاً نُسارع دون تفكير وبلا وعي للوقوع في هذه الهاوية الحارقة)؛ وإنّما أنّني تركتها تقصّ لي، على الوسادة الحامية، أسراراً تخصّه، وأنّني سمحت لهذه الزّوجة الغاضبة أن تكشف لي سرّ زواجها. لماذا لم أصدّها وسمحت لها بأن تُسرّ لي أنّه لم يُضاجعها منذ سنوات، وأنّها تعيش مبعثرة في أوهام مُظلمة؟ لماذا لم آمرها بشكل قاطع أن لا تقول شيئاً عن هذا السّر الشّخصي جدّاً والمرتبط بالحياة الجنسية لأستاذي؟ بيد أنّني كنت، في الحقيقة، أتحرّق لمعرفة سرّه، وكنت شديد التشوّق لأن أُثبت ظُلمه لي وظلمه لها وللجميع، حتى إنّني استقبلت بارتياح شديد اعترافها السّاخط بأنه كان يُهملها. ذلك أنّ فيما قالته يكمن شيء مشابه لشعوري الخاصّ بي بأنّه يُهملني! هكذا إذاً حدث أنّنا معاً، مشمولين بِبُغضٍ ملتبس ومشترك، قمنا بأمر يُحاكي حركات المضاجعة. لكن، بينما كان جسدانا يسعيان لبعضهما بعضاً ويتداخلان، لم نكن نُفكّر معاً إلّا فيه ولم نكن نتحدّث سوية إلّا عنه، باستمرار ومن دون انقطاع. كانت كلماتها تُؤلمني أحياناً فأشعر بالخجل من أن بقيت هنا،

رغم الرّعب الذي كان يستولي عليّ عندما أجدني وحدي. لكن الجسد الذي كان يقع تحتي ما كان عاد يستجيب لأيّ من رغباتي، فينداح بوحشية في غُلمته الذّاتية، وكنت أقبّل مرتعشاً الشّفة التي خانت الرّجل الذي أحببته أكثر من أيّ كان في هذا الوجود.

تسلّلتُ صباح اليوم التّالي إلى غرفتي، شاعراً بمرارةِ لسانِي نتيجة تقزّزي وإحساسي بعاري. في اللّحظة التي كفّ فيها دفء جسدها عن بلبلة حواسّي، وعَيتُ الحقيقة البشعة وخيانتي الوضيعة. لن أستطيع بعد الآن -أحسست بذلك على الفور- أن أمثُل أمامه ولا أن أُصافحه، لأنّني أنا من جرّدت أثمن شيء في الوجود ممّا فيه من خير، وليس هو.

لم يعد أمامي الآن سوى منفذ واحد للسلام، وهو أن أفرّ. جعلت أُعدّ أمتعتي بحمية، فجمعت كتبي في كومة وأدّيت ثمن الإيجار، لأنّني لا أُريده أن يجدني هنا عندما يعود. كان علي أنا أيضاً أن أختفي دون سبب معلوم وبطريقة ملغزة، تماماً كما يفعل هو.

لكن كفّي توقّفت فجأة عن الحركة، وسط هذا الاصطخاب العجول، لأنّني سمعت صرير السُّلّم الخشبي وخطوات سريعة تصعد الدّرجات. إنّه خطوه.

كان وجهي قد اكتسى، دون شكّ، شحوباً شديداً، لأنّه ما أن دخل حتى أطلق صرخة ارتعاب: «ما بك يا فتايَ؟ هل أنت مريض؟».

تقهقرتُ إلى الوراء وتفاديته مُنثنياً في اللّحظة التي أراد فيها أن يقترب منّي لإسنادي.

«ما بك؟» سأل مرعوباً، «هل حصل لك مكروه؟ أم أنّك... أم أنّك... لا تزال غاضباً منّي؟».

تراجعت وتشبّثت بالنافذة. لم يكن بمقدوري النظر في وجهه. كان صوته الدّافئ والمترعُ شفقة يفتح في داخلي ما يُشبه جرحاً، فصرت قريباً من فقد وعيي، وشعرت بالعار ينبثق في داخلي قويّاً، مُتدفّقاً، دافئاً، حارقاً ومُلتهماً.

لكنّه هو أيضاً كان أمامي مُندهشاً مُتحيّراً. وفجأة صار صوته ضعيفاً ومتردّداً فوشوش بسؤال غريب: «هل قال لك... أحدهم... شيئاً عنّي؟».

ودون أن ألتفت إليه أصدرت حركة نفي. لكن يبدو أن فكرة حائرة كانت مُستولية عليه، فكرّر بعناد: «أخبرني بذلك. اعترف... هل قال لك أحدٌ شيئاً عنّي؟. كائناً من كان، فأنا لن أسألك من هو».

أشرت من جديد أن لا، فظلّ مرتبكاً. لكن بدا وكأنّه قد انتبه فجأة إلى أنّ حقائبي كانت مُعدّة وأنّ كتبي على وشك أن تُجمع وأن مقدَمَه، تحديداً، هو ما أوقف إعدادات السّفر الأخيرة هذه. تقدّم مُنذهلاً: «تُريد أن تنصرف يا رولاند. هذا واضح.. لكن قُل لي الحقيقة».

عندئذٍ تمالكت نفسي. «علي أن أنصرف.. اعذرني... لا يُمكنني أن أُفسّر. سأكتب لك». استحال

علي أن أقول أكثر من ذلك، لفرط ما كانت حُنجرتي منضغطة، ولكثرة ما كان قلبي يخفق لكل كلمة.

ظلّ ثابتاً في مكانه، ثم عاوَدَته فجأة حالُه المُتعبَة. «ربّما كان ذلك أحسن يا رولاند... أجل، لا شكّ أنّ في انصرافك خيراً. لك وللجميع. لكن قبل أن تنصرف أريد أن أُحدّثك مرّة أخرى. تعال في السّابعة، في السّاعة المعهودة. سنودّع بعضنا بعضاً، رجلاً لرجل.. لا يجب أن تهرب منّي، ولا حاجة إلى الرسائل. سيكون ذلك صبيانياً لا يليق بنا معاً. ثمّ إنّ ما سأقوله لكِ لا يُكتب.. ستأتي إذاً، أليس كذلك؟».

اكتفيت بإصدار حركة موافقة. لم أجد لديّ بعدُ جرأة تحويل نظري عن النّافذة، لكنّني ما كنتُ عدتُ قادراً على رؤية شيء واضح من هذا الصّفاء الصّباحي، لأنّ حجاباً سميكاً وداكناً كان قد نُصب بيني وبين العالم.

في السابعة ولجت لآخر مرّة هذا المكتب الذي كنت أُحبّه. كانت غتمة سابقة لأوانها تتسلّل من منافذه، وكانت بقايا لمعان، في عمق الغرفة، تصدر عن حواشي الوجوه المرمرية، في حين تنام الكتب كلّها، سوداء، خلف الزجاج ذي الانعكاس الصّدفيّ. هو ذا المنفى السرّي لذكرياتي، حيث كان الكلام يصير عندي سحراً، وحيث تذوقت ثمالة الفكر وسعادته، كما لم أفعل في أي مكان آخر. وأنا لا أزال

أراك، في لحظة الفراق هذه، وأراك ثمّ أراك دائماً الشّخصَ الجليل الذي يتخلّص ببطء، ببطء، من متكأ أريكته ويأتي أمامي مثل طيف. وحدها جبهته كانت تلمع مُستديرة كمصباح مرمريّ، في العتمة، ويُحلّق في الأعلى ما يُشبه دخاناً، هو الشّعر الأبيض للّرجل العجوز. هو الآن ينتصب بصعوبة وتبرز كفٌّ، قادمة من الأسفل، باحثة عن كفّي. وأنا الآن أتعرّف عينيه الموجّهتين نحوي بحدّة، وأشعر سلفاً أنّه يُمسك برقّة بذراعي ويقودني إلى مقعد.

«اجلس يا رولاند، ولنتحدّث بوضوح. نحن رجلان ويجب أن نكون جدّيين. أنا لا أضغط عليك، لكن أليس من الأليق أن تُنشئ هذه اللّحظةُ الأخيرة وضوحاً كاملاً بيننا؟ قل لي إذاً لماذا تُريد الانصراف. هل أنت غاضب منّي بسبب ذلك الهجوم العبثي؟».

أشرت أن لا كانت فكرةً مرعبة أن يكون هو، المخدوعَ والمَخُونَ، من يريد أن يحمل الخطأ على عاتقه.

«هل جرحتك بسبب من ذلك، قصداً أو عن غير قصد؟ أنا أكون غريباً في بعض الأحيان. أنا أعرف ذلك. لقد أغضبتك وبلبلتك دون أيّ قصد منّي. كما أنّني لم يسبق لي أن شكرتك بالقدر الكافي على كلّ الاهتمام الذي أوليتني إيّاه. أنا أعرف ذلك، أعرفه وقد عرفته دائماً، حتّى في اللّحظات التي كنت أُسيء لك فيها. هل هذا هو السّبب، أخبرني يا رولاند، لأنّني أريد أن نفترق مُخلصين لبعضنا بعضاً».

حرّكت رأسي من جديد، غير قادر على الكلام. كان صوته حتى هذه اللحظة واثقاً، لكنّه جعل الآن يضطرب قليلاً.

«أم ربّما. أنا أسألك من جديد. قد يكون شخص ما قد أسرّ لك أمراً في حقّي.. أمراً تراه أنت قبيحاً. حقيراً. أمراً يجعلك تكرهني؟».

«لا، لا، لا!. .» انبثق هذا النّفي كمثل دفقة بُكاء. أنا أكرهه! أكرهه هو! أنا!

أصبح صوته الآن مُتعجّلاً. «لكن ما الذي حصل إذاً؟. ماذا عساه يكون هذا الذي طرأ؟. هل تعبت من العمل؟ أم أنّ أمراً آخر مختلفاً هو الذي يدفع بك للانصراف؟ امرأة. هل هي امرأة؟».

صمتُّ، فكان صمتي، حتماً، دالّاً، حتى إنّه اعتبره اعترافاً. مال علي قليلاً ووشوش بخفوت، لكن دون انفعال، دون أي انفعال أو غضب:

«هل هي امرأة؟ امرأتي؟».

واصلت التزام الصّمت، ففهم. اجتاحت جسدي رعشة. الآن، الآن، الآن سينفجر وسيرتمي عليّ ويضربني ويُعاقبني. وكنت أشعر بما يُشبه الرّغبة في أن يجلدني، أنا اللّص، أنا الخائن، وأن يطردني بركلة من رجله كمثل كلب أجرب، من منزله الذي دنّسته. لكنّه ظلّ، أمام استغرابي،

مُلتزماً صمتاً تامّاً. وعندما تمتم لنفسه، مُتفكّراً: «كان علي أن أُفكّر في ذلك حقّاً...» كسا صوتَه ما يُشبه الارتياح. ذرع الغرفة مرّتين ثمّ توقّف أمامي وقال لي بنبر يكاد يكون مُحتقِراً: «هل هذا هو السّبب. هل هذا هو ما تأخذه إلى هذه الدّرجة مأخذَ جدّ؟ ألم تَقل لك إنّها حرّة في أن تفعل ما يحلو لها، وأن تُعاشر من تشاء، وأنّني لا حقّ لي عليها... لا حقّ لي في أن أمنعها من شيء، وأنّني فوق هذا لا رغبة لي في ذلك... ولماذا يكون عليها أن تمنع نفسها من حبّ من تشاء وبالخصوص من حبّك أنت. أنت الشاب الشفّاف الوسيم... أنت كنتَ قريباً منّا. فكيف كان بإمكانها أن لا تُحبّك، أنت.. أنت لوسامتك وشبابك، كيف كان بإمكانها تجنّب حبّك... أنا...»، وشرع صوته فجأة يرتعش ومال في اتّجاهي، قريباً منّي، حتى إنّني أحسست بأنفاسه، وأحسست من جديد بالدّفء المكتنِف لنظراته، وشعرت ثانية بهذا النّور الشّبيه بذاك الذي كان ينبعث بيننا في تلك اللحظات النادرة والفريدة. كان يقترب منّي أكثر فأكثر.

ثمّ وشوش بخفوت، لا تكاد شفتاه تتحرّكان: «أنا. أحبّك أيضاً».

هل تململت في مكاني؟ هل كانت كلماته قد جعلتني على الرّغم منّي أتقهقر رعباً؟ ففي جميع الأحوال، لا بدّ أن تكون حركات مُفاجأةٍ وهروبٍ قد أفلتت منّي، لأنّه ترنّح وهو

يتقهقر كمثل شخص صُدّ إلى الوراء. أظلم ظلٌّ محياه. «فهل أنت تحتقرني الآن؟» سأل بصوت خفيض، «هل أُصيبك بالرّعب الآن؟»

لماذا لم أعثر لحظتها على أيّ كلمة أتلفّظ بها؟ لماذا اكتفيت بأن مكثت أخرسَ، كأنّني لا أهتمّ، مُرتبكاً، شبه مُخدّر، بدل أن أندفع نحو هذا الرّجل المليء حبّاً وأن أنزع عنه همّه غير المبرّر؟ لكنّ الذكريات كلّها اجتاحتني بوحشية، كما لو كانت اللّغة غير المفهومة لكلٍّ الرّسائل السّابقة قد كشَفَت لتوّها فجأة عن معناها، ففهمتُ الأشياءَ حينئذٍ بوضوح مرعب: فهمت الحنان الذي كان يُقبل به عليّ وهجومَه الفجائيّ، وفهمت، وقد اجتاحتني البلبلة، زيارته اللّيلية وهروبه العنيد من أمام شغفي الذي كان يسلك السّبيل إليه بحماس. وحبُّه الذي شعرت دائماً أنّه يحمله لي، رقيقاً وخجولاً وزائداً عن الحدّ أحياناً، والمُعاكَس بعد ذلك بفعل قوة خارقة؛ هذا الحبّ كنت استشعره وقد استمتعت بكلّ شعاع منه يسقط علي خلسة. غير أن رعشة رقيقة ومُرعبة سرت في صُدغَيّ عندما لُفظت كلمة «حبّ» من هذا الفم الملتحيّ، بنبرِ حنانٍ حسيٍّ طافح. ورغم تواضعي أمامه وشفقتي الحارقة عليه، أنا الشاب الضائع في ارتباكي والمرتعش والمفاجأ، فقد فشلت في العثور على كلمة أجيب بها عن شغفي به الذي أعرب عن نفسه فيّ على حين غفلة.

كان جالساً، نظرته ثابتة، مُنهكاً أمام صمتي. «الأمر

بالنّسبة إليك إذاً مرعب، مرعب إلى هذه الدّرجة»، وشوش. «أنت أيضاً... لا تغفر لي إذاً، أنت بدورك، وقد زممتُ أمامك شفتَيّ حتى الاختناق.. أنت الذي تستّرت أمامك كما لم أفعل أمام أيّ شخص آخر؟ لكن يحسن بك أن تعرف الآن. لم يعد الأمر يُشعرني بأيّ ضيق في هذه اللحظة... لأنّ الكيل قد طفح بالنسبة إلي. أوه! بل أكثر من ذلك... ويجب التوقّف ها هنا، يجب على هذا الصّمت وعلى هذا التّستّر...».

كم كان يقول ذلك بحزن ورقّة وحشمة! فكانت نبرته المرتعشة تلج أعماق كياني. شعرت بالخجل من أن أظلّ بارداً إلى هذه الدّرجة، فاقداً للإحساس ومُجمّداً في صمتي أمام هذا الرّجل الذي أعطاني أكثر من أيّ كان، والذي يُذلّ نفسه أمامي بطريقة لا معنى لها. كانت روحي تتحرّق من رغبتها في أن تقول له كلمة عزاء، لكنّ شفتَي المرتعشتَين لم تُطيعاني، فصرت، وأنا على هذه الحال، مُنزعجاً، ضئيلاً بقدر يُثير الشّفقة، وانكفأت على نفسي في مقعدي حتى إنّه جعل، على الرغم منه تقريباً، يسعى لتشجيعي: «لا تبقَ جالساً هكذا يا رولاند، لا تبقَ صامتاً بهذه الطّريقة المرعبة.. تمالك نفسك إذاً... هل الأمر مُرعب إلى هذا الحدّ بالنسبة إليك؟ هل جعلتك حقّاً تشعر بالعار إلى هذه الدّرجة؟ لقد انقضى كلّ شيء الآن، وقد أخبرتك بكلّ شيء... لنفترق إذاً عن بعضنا مُتحلّيَين بالشجاعة، بطريقة تليق برجلين وتجدر بصديقين».

لكنّني لم أكن قد استعدتُ رشدي بعد، فلامسَ عندئذٍ ذراعي: «تعال يا رولاند واجلس بجانبي. فأنا أشعر أنّ حالتي قد تحسّنت بعد أن أخبرتك بكلّ شيء، وبعد أن ساد الوضوح أخيراً بيننا. أنا كنت أخشى في البداية أن تُخمّن كم كنتَ عزيزاً عليّ. ثمّ تمنّيت أن تشعر بذلك من تلقاء نفسك، فقط حتّى أُجنّب نفسي هذا الاعتراف... لكن الأمر حصل، وأنا الآن حرّ، ويمكنني في هذه اللّحظة أن أتحدّث إليك كما لم يسبق لي أن تحدّثت لأيّ شخص آخر، لأنّك كنت أغلى عندي من أيّ كان، وقد أحببتك خلال هذه السّنوات الأخيرة كما لم. ثمّ، وعلى سبيل الوداع، يجدُر بي أن أخبرك عنّي بأكثر ممّا يعلمه أيّ شخص آخر. لقد أحسست حقّاً، وبوضوح كامل، خلال هذه السّاعات كلّها، بسؤالك الأخرس. أنت وحدك ستعرف كلّ شيء عن حياتي. هل تريدني أن أحكيها لك؟».

فقرأ إذعاني في نظراتي المضطربة والصّامتة.

«اقترب إذاً. تعال بجانبي... فأنا لا يُمكنني أن أتحدّث عن هذه الأمور بصوت مرتفع». استجبت خاضعاً - نعم هي ذي الكلمة. لكنّني ما أن جلست قبالته، مُنتظراً وصامتاً، حتّى نهض من جديد. «ليس هكذا... عليك أن لا تنظر إليّ.. وإلّا، وإلّا فإنّني لن أستطيع الكلام». وأطفأ النّور بحركة من يده.

لفّتنا العتمة. كنت أشعر أنّه قريب منّي. شعرت بذلك من

نفَسِه الذي كان يضيع في مكان ما من الظّلمة، ثقيلاً كأنّه حشرجة. وفجأة ارتفع صوت بيننا وحكى لي حياته كلّها.

منذ المساء الذي فتح لي فيه هذا الرّجل الذي كنت أُجلّه من بين الجميع، فوقَعَة قدَرَه، كما تُفتح محارة صلبة؛ منذ هذا المساء الذي يعود إلى أربعين سنة، أصبح كلّ ما يحكيه كتّابُنا وشعراؤنا من الخوارق في كتبهم وما يكشف عنه المسرح على الخشبة من المآسي - أصبح عندي صبيانياً وبلا قيمة. هل بسبب الكسل أم الجبن أم الافتقار إلى الرّؤية يكتفون جميعاً برسم المنطقة العليا والمضيئة من الحياة، حيث تلهو الحواسّ في وضح النّهار وبطريقة شرعية، بينما تصطخب في الأسفل، في مدافن القلب وفي مغاراته العميقة وبالوعاته، رامية بالتماعات فسفورية، وحوشُ الشّغفِ الحقيقيةُ والخطيرة، مُتوالدةً ومُتطاحنةً في العتمة، مُتّخذةً جميع أشكال التّداخل الأكثر غرابة؟ فهل هم مرعوبون من النّفَس الحارق والملتَهِم للغرائز الشّيطانية ومن بخار الدّم المحترق؟ وهل هم خائفون من أن تتلطّخ أكفّهم الرّقيقة بالتّقرّحات الإنسانية، أم أنّ نظرهم المعتادَ على الوضوح الكامد عاجز عن أن يقودهم إلى أسفل هذه الدّرجات الزّلِقةِ والمحفوفة بالمخاطر والتي يُثير تعفّنُها التقزّزَ؟ غير أنّ الرّجلَ العارفَ لا يُمكنه أن يُعرب عن سعادةٍ أقوى من تلك التي نعثر عليها في العتمة، وعن ارتعاشٍ أقوى من الذي يكون باعثَه الخطرُ المجمِّد، ويرى أنّ أيّ

معاناة لا يُمكنها أن تكون أكثر قدسية من تلك التي لا نجرؤ على التّعبير عنها، حشمةً.

بيد أنّ رجلاً يوجد ها هنا وهو يكشف لي عُريه الكامل. هنا رجل يُمزّق أعماق صدره مُتلهّفاً لتعرية قلبه المنكسر والمُستنزَف والمتقيّح. هي ذي شهوة متوحّشة للاستشهاد ولجلد النّفس طوعاً، من خلال اعتراف تمّ حبسه سنوات وسنوات. وحده شخصٌ كان من قبل يشعر بالخجل، وانطوى واختفى خلال حياة كلّها، كان بإمكانه، بثمالة طافحة إلى هذه الدّرجة، أن ينزل حتّى يصل إلى اعترافٍ بهذه القسوة. كان رجلٌ ينتشل حياتَه من صدره قطعةً قطعةً، فلمحتُ في هذه اللحظة، أنا الذي كنت لا أزال في ريعان شبابي، للمرّة الأولى، وبنظرة مُنهكة، أعماقَ الشّعور الإنساني المتمنّعة على الإدراك.

حلّق صوته في البداية، لا مادّياً، في الغرفة مثل دخان مُشتَّت نابع من الإحساس، وكأنّه تلميح غير واضح لأحداث سرية. لكن كان بالإمكان الإحساس، من الطّريقة التي كان يتحكّم بها بصعوبة في شغفه، أنّ هذا الشّغفَ سُرعان ما سيتحرّر بعنف، فنستشعر الغضب يعتمل في عروقه، تماماً كما يحصل في بعض الأقيسة الموسيقية المُبطَأة بقوة والتي تسبق إيقاعاً متأجّجاً. لكن بعد ذلك شرعت صور تلمع وترتفع مرتعشة فوق زوبعة الشّغف الدّاخلية، وشيئاً فشيئاً صارت أوضح. رأيت في البداية فتى خجولاً ومنطوياً على نفسه لا

يجرؤ على قول كلمة واحدة لرفاقه، لكنّ رغبةً جسديةً ملتبسة ومتسلّطة تجلبه تحديداً نحو الفتيان الأكثر وسامةً في المدرسة. بيد أنّ أحد هؤلاء، وأثناء تقاربٍ لطيف بينهما، دفعه عنه بغضب، واستهزأ به آخرُ مُتلفِّظاً في وجهه بكلمة جَلِيةِ القُبحِ، بل أفظع من ذلك، جعلا معاً يسخران أمام الآخرين من هذه الرّغبة الشّاذة، فأقصته على الفور السّخريةُ والإهانة المُستمرّتان والمُتّفق عليهما، بشكل ملتبس، من رُفقتِهم البهيجة، وكأنّه مُصاب بالطّاعون. أصبح الذّهاب إلى المدرسة بالنّسبة إليه عذاباً يومياً، ورأى لياليه، هو الذي شُوِّهَت سمعتُه في هذه السنّ المبكّرة، تُقرَضُ بتقزّزه من نفسه. شعرَ المُبعَدُ من دائرة الرّفاق بشغفه الشّاذ وكأنّه حمق أو نقيصة غير مشرّفة، بيد أنّ هذا الشّغف لم يكن قد أبان عن نفسه بوضوح إلّا في الأحلام.

ترنّح الصّوت الذي يحكي، مُفتقداً للثّقة، حتّى بدا في لحظة أنّه يكاد ينطفئ وسط العتمة. لكنّ تنهيدة أعادت له القوة فخرجت لحظتئذٍ من الدّخان المضطرب، لامعةً، صورٌ جديدة اصطفّت كأنّها ظلال وأشباح. أضحى الفتى طالباً شابّاً في برلين، ولأول مرة سمحت الأماكنُ البائسة من المدينة لميله أن يُشبَعَ، بعد أن تمّ التحكّم فيه مدّة طويلة. لكن، كم كانت هذه اللّقاءاتُ الخاطفة تُوسَّخ بالتقزّز وتُسَمَّم بالقلق، في الزّوايا المعتّمة للطّرق، وفي ظلمة المحطّات أو الجسور! وكم كانت فقيرة في لذّتها، يغشاها الارتعاشُ على الدّوام

ومليئةً بالأخطار المحدّقة، مُنتهية في غالب الأحيان بابتزاز بائس، فيدوم أثرُ كلّ لقاء أسابيع كأنّه بزّاقة وأثر لزج مرعب في برودته! نشأت دروبٌ جهنمية تصل بين الظّل والنّور؛ فبينما يُطهِّر بلّورُ الذّهن الفتى العالِمَ خلال النّهار الواضح والمثمر، يعود هذا الكائنُ الشّغوف مساءً، ودائماً، للغطس وسط حثالة أطراف المدينة، بصحبة أشخاص مشبوهين تجعلهم أدنى رؤية لقبّعة أيّ شرطيّ يُطلقون سيقانهم للرّيح هرباً إلى الخمّارات التي تسبح في أبخرة ثقيلة ولا تنفتح أبوابها الحذرة إلّا أمام بسمات مُتّفق عليها. وجدت الإرادة نفسها مضطرّة للانشداد مثل الرّصاص كي تُخفي ازدواجيةَ العيش اليومية هذه، وتسترَ عن النّظرات الغريبة هذا السّر الذي أضحى كمثل رأس ميدوزا[1] حقيقيّ، وحتّى تُحافظ نهاراً، في منأى عن أيّ شكّ، على الموقف الصّارم والجدير بأستاذٍ يعود بعد ذلك ليذرع ليلاً، وخفيةً، العالمَ التّحت أرضي في هذه المغامرات المخجلة، وسط ظلال المصابيح المترنّحة. أجهد نفسه، بعد أن أضحى خاضعاً لعذاب لا ينتهي، كي يُعيد إلى الجادة هذا الشّغفَ الذي زاغ عن الطّريق المعهود، مُسخّراً

---

(1) ميدوزا (Méduse) هو، في الأسطورة الإغريقية، مخلوق عجائبي، شرّير، وهو من الدّمامة بحيث أنّ كل من يجرُؤ على النّظر إليه يموت متحجّراً على الفور. ويوصف بأنّه من جنس الإناث، مُجنّح وله أنياب خنزير برّي وشعر من أفاعٍ ونظرة ثابتة مُرعبة، ترمز إلى قوّة مُخيفة. -المترجم-

لذلك سوطَ المراقبة الذّاتية. لكن دائماً ما كانت الغريزة تقوده من جديد نحو الأخطار المحدقة. عشر سنوات، اثنتا عشرة، خمس عشرة سنة من المقاومة المنهِكة للأعصاب، ضدّ القوّة الجَالبة وغير المرئية لميلٍ لا يَلِينُ، تضيع بفعل تشنّج واحد وبهجةٍ بلا لذّة، مُخجلةٍ وخانقة. وشيئاً فشيئاً بدأت تظهر لديه هذه النّظرةُ المُعتّمة والمخبوءة بخجلٍ داخلَ الذّات، والتي كان منشأُها هو خوفَه من شغفه الذّاتي.

أخيراً، وبعد تجاوزه سنَتَهُ الثّلاثين، حانَت مُبادرةٌ سمحت بإعادة الأمور إلى نصابها. تعرّف في بيت إحدى قريباته إلى زوجته المستقبلية، فانجذبت هذه الفتاة إليه بطريقة مُلتبسة بسببٍ من كينونته الملغزة، وأبدت نحوه حبّاً جادّاً. لأوّل مرّة استطاع الجسد المخنّث والهيئة الطّفولية والمشاكسة لهذه المرأة أن يُحدثا تغييراً لبعض الوقت في شغفه. حصل بينهما ارتباطٌ سُرعان ما انتصر على نفوره من الأُنثى، ولأوّل مرّة أذعن مُنهزماً. وعلى أمل أن يُسيطر على ميله الشّاذ، بفضل هذه العلاقة (الأرثوذكسية)، ومن تلهّفه الارتباطَ بما يمنحه، لأوّل مرةّ، دعماً ضدّ هذا الانجذاب الداخلي نحو المجازفة، تزوّج الفتاة بسرعة، بعد أن اعترف لها بكلّ شيء. جعل لحظتها يُفكّر في أنّ العودة إلى الأمور المرعبة مستحيل، فنَعَمَ خلال أسابيع قليلة بالهدوء. لكن سُرعان ما بدا المُثيرُ الجديد غيرَ فعّال، وتفوّقت الرّغبة الأولى، العنيدة، فما عادت المرأة الخائِبةُ، والمُخيِّبة أيضاً، منذئذٍ، تصلح إلّا لأن

تكون واجهة تُخفي عن المجتمع عودة ميله الشاذّ. تجاوزت الطّريقُ الخطرة من جديد حدودَ القانون وحدود المجتمع لتنزل في اتّجاه عتمة المجازفات.

ثم انضاف انشغال جديد إلى انشغال الالتباس الدّاخلي، فعُيّن في مهنة أصبح فيها ميلُه لعنةً. المخالطة الدّائمة للشّبان هي واجب رسميّ بالنسبة إلى أستاذ محاضر، سيُصبح عمّا قريب أستاذاً رسمياً تدفع الغواية باستمرار نحوه، وعن قرب، بإزهارٍ شبابيٍّ جديد، غضّ ورياضيّ في خضمّ عالم يحكمه القانون البروسيّ[1] أحبّوه جميعاً حبّاً شديداً (لعنة جديدة وأخطار جديدة!) دون أن يستطيعوا تمييز محيّا إيروس[2] خلف قناع الأستاذ. يشعرون بالسّعادة عندما يضع بطيبة كفّه المرتعشة خفية عليهم. كانوا يُبدون حماسهم بسخاء لشخص يجد نفسه مُلزماً باستمرار أن يتمالك نفسه أمامهم. كان عذابه شبيهاً بمحنة تانتال[3]: أن يظهر صلباً أمام زخم التّعاطف

(1) قانون يُجرّم المثلية الجنسية وكلّ أشكال الفجور. -المترجم-

(2) إيروس (Eros) في الميثولوجيا اليونانية هو إله الحبّ والرّغبة والجنس، يُعادل آمور (Amor) في الميثولوجيا الرّومانية. -المترجم-

(3) Supplice de Tantale، عبارة تعني خيبة الإنسان الذي لا تتحقّق مشاريعه رغم أنّه يكون قريباً من الهدف. وهي تُحيل على أسطورة إغريقية: عاقب الإله زيوس ابنه تونتال، لجرم ارتكبه، فحكم عليه أن-يتحمّل الجوع والعطش إلى الأبد: وهكذا كان كلّما اقترب من فاكهة أو من عين ماء، تتحوّل الثّمرة إلى صخرة ويختفي نبع الماء. -المترجم-

القوي، مُقاوماً باستمرار ضُعفَه الشّخصي! وكان دائماً ما يلتجئ فجأة للهروب، كلّما أحسّ بنفسه قريباً من الوقوع في إغراء. كانت تلك هي حالات هروبه التي طالما أوقعني في الحيرة انصرافُه لها وأوبته منها، وأنا أفهم الآن طبيعة فرارِهِ الرّهيب من نفسه؛ فرارِهِ إلى فظاعة الدّروب المنحرفة والأماكن المستترة. عندئذٍ كان ينصرف دائماً إلى مدن كبيرة يعثر في أماكن منعزلة منها على متواطئين وعلى أشخاص يعيشون في ظلّ شروط خسّيسة، فيُصبح لقاؤه بهم نجاسة. كان يعثر فيها على شباب داعر بدلاً من الشّباب الذي كان يُقبل عليه مُبجِّلاً. لكن هذا التقزّز وهذه الحيرةَ وهذه الفظاعة ولذعةَ الخيبة السّامة هذه كانت ضرورية عنده كي يستطيع بعد ذلك، عندما يعود إلى حال سبيله، في حلقة طلبته المطمئنّة، أن يشعر بالثّقة في حواسّه. أوه! يا لها من لقاءات ويا لها من وجوه شبحية -هي مع ذلك من هذه الأرض ومنتنة- كانت اعترافاتُه تعرضها أمامي! ذلك أنّ هذا الرّجل ذا النّزعة الثّقافية العالية، والذي كان الجمال بالنّسبة إليه، في كلّ أشكاله، حاجةً فطرية وحيوية، وهذا العَالِمَ الرقيق بكلّ المشاعر، وجدَ نفسه يتحمّل أقبحَ شتائم الأرض في هذه الأكواخ السّابحة في الدّخان وفي الأنوار المتذبذبة، والمفتوحة فقط في وجه المعنيين. كان على علم بالمتطلّباتِ الوقحة للشّبان المتأنّقين والواضعين أصبَاغَهُم وهم يتجولون في المنتزهات، ويعرف أيضاً الرّقة الأليفة للفتيان المحلّقين الطّافحِ عطرُهُم،

والضّحكاتِ المُثارةَ وشبه المفتعلة للمتحولين جنسياً، في ملابسهم النسائية، والرّغبةَ المسعورة في الحصول على المال يُبديها ممثّلون لا شغل لهم، والرّقةَ الفظّة للبحّارة الماضغين، وكلَّ هذه الأشكال الحائرة القلقة والآخذة حذرها والخارقة للعادة، والتي يبحث فيها الجنسُ الضّائع عن نفسه ويتعرّف إليها، في الأماكن الأكثر إظلاماً من المدن. لقد قاسى على هذه الدّروب الزّلِقَة كلّ أشكال المهانة والعار وتكبّد كلّ أنواع العنف. كثيراً ما كان يُجرَّد من ملابسه (هو أضعف وأنبل من أن يأخذ بتلابيب سائس) فيعود إلى بيته دون ساعته اليدوية أو معطف، وأفظع، بعد أن يكون محطّ سخرية «الرّفيق» السكّران في النّزل الحقير للضّاحية. كما أنّ مُبتزّين اقتفوا أثره، حتى إنّ أحدَهم تبعه أشهراً، خطوة خطوة، حتى الكلّية، فجلس بصلف في الصّف الأمامي مع الحضور مُبدياً بسمَتَه الوقحة ناظراً إلى البروفيسور المعروف في المدينة كلّها، والذي جعل يرتعش أمام غمزات عينه، حتى إنّه وجد صعوبة بالغة في إنهاءِ درسه. وفي مرّة (كاد نبض قلبي يتوقّف عندما اعترف لي بذلك) أوقفته شرطة برلين في منتصف اللّيل، مع رُفقَة، في حانة سيئة السّمعة. شرع شرطي متدنّي الرتبة، بدينٌ ومحمرُّ الخدّين، يُسجّل في دفتره اسم ووظيفة البروفيسور المسكين الواقف أمامه مرتعد الجسد، فأصدر هذه البسمة المتعالية والسّاخرة، لأنّ بإمكانه الآن، ولمرّة وحيدة، أن يظهر بميسم الرّجل المهمّ أمام رجل مثقّف، فقال في الأخير إنّه سيُطلق

سراحه هذه المرّة، فضلاً منه، دون غرامة، لكنّ اسمه سيبقى من الآن فصاعداً مُقيداً في اللائحة الخاصّة. وكما أنّ ملابس شخص جلس لمدة طويلة في مكان تسبح فيه الرّوائح الكريهة لكحول رديء يكون مصيرها أن تتشبّع بهذه الرّائحة، فإنّه كان حتمياً أن يشرعوا هنا، في مدينته، يُوشوشون بأمره، شيئاً فشيئاً، دون أن يعرف أحدٌ من أطلق الخبر أول مرة. وكما كان الشّأن قديماً مع رفاقه في القسم، أصبحت الآن المحادثات والتّحيات تغدو بينه وبين زملائه في العمل أكثرَ بروداً فأكثر، إلى أن فصل قفصٌ أخضرُ شفّافٌ هذا الرّجلَ الغريبَ والوحداني على الدّوام، عن النّاس أجمعين. لا، بل حتّى في انعزاله في منزله المغلق بإحكامٍ مُرعبٍ، كان يشعر أنّه مراقب ومكشوفٌ أمرُه.

لكن هذا القلب المعذّب والقلق لم ينعم قطّ بصداقة صافية ونبيلة؛ لم ينعم بحنان صداقة رجولية لا دخل للحواس فيها، فوجد نفسه على الدّوام مُرغماً على التّمييز في مشاعره بين جزء مُخصّص للعلاقات الراقية والتطلعات الرقيقة ولعلاقته بالرفقاء الشباب المثقّفين في الكلّية، وبين الجزء الغاطس في عتمة هذه «الفتوحات» التي لم يكن يتذكّرها، صباح اليوم التّالي، إلّا مرفوقة بارتعاشة. لم يسبق لهذا الرّجل الذي شرع الآن يتقدّم في السّن أن حظيَ بعلاقة صافية وبمصاحبةِ مراهقٍ ذي روح سخية يجعل نفسه في خدمته، فكان -وقد أنهكته الخيبات وتمزّقت أعصابُه جرّاء هذه المطاردة في الأحراج الشّائكة- قد

جعل يرى سلفاً، بخضوع، أن وجوده إنّما أضحى خراباً. عندئذٍ، وفي نهاية المطاف، ولج شابٌّ مشغوف حياته، مُقدّماً نفسه بابتهاج حقيقيّ -بكلامه كما بكيانه- للبروفيسور الشّيخ، مُوجّهاً كلّ عنفوانه نحوه، هو الذي كان مهزوماً ومُبلبلاً، فارتعب من هذه المعجزة التي ما كان عاد له فيها أملٌ، لأنّه كان قد كفّ عن الشّعور بأنّه أهلٌ لأُعطية مثل هذه والممنوحة له بسخاء. كان قد أقبل نحوه، مرّة ثانية، رسولُ شبابٍ ووجهُ جمال ذو مزاج مفتتن، يتحرّق نحوه بنار روحية وتربطه إليه برقّة روابطُ تعاطفٍ، تواقٌ إلى صداقته غيرُ واعٍ بالخطر المحدق به. كان الشابُّ يحمل في روحه البريئة مشعلَ إيروس، جرّيئاً وغير متوجّس من شيء، كمثل بارسيفال البريء[1]، فانحنى على جرحه المسمّم، جاهلاً بالسّحر، وغير عارف أنّ مَقدَمَه في ذاته كان يحمل له الشّفاء. هو الذي انتُظر مدّة طويلة، حياةً بأكملها، يأتي متأخّراً، في آخر ساعات المساء المُرخي أستاره، ويلج المنزل.

أثناء وصفه لهذا الوجه كان صوته يخرج هو أيضاً من العتمة. فبينما كان هذا الفم الفصيح يتحدّث عن الشابّ المحبوب القادم في ساعة متأخّرة، كان يبدو وكأنّ نوراً ما يُطهّر صوته وتُنبت فيه رقّةٌ عميقة جناحين من الموسيقى. كنت

---

(1) البريء والطّاهر، وهو بطل الأسطورة القروسطوية التي ألهمت ريتشارد فاغنر (Richard Wagner) لحنَه الأوبراليّ الأخير.

أرتعش تأثُّراً وتعاطُفاً وسعادة، لكن قلبي شعر فجأة بما يشبه ضربة مطرقة تهوي عليه. ذلك أنّ هذا الشّاب الذي كان أستاذي يتحدّث عنه هو. . . (كانت الحشمة قد ضرّجت وجنتَي). . . هو أنا نفسي. كنت أرى صورتي تُفارقني وتستقرّ في عمق مرآة ملتهبة، مشمولة بإشراقة من الحبّ لا مثيل لها حتى إنّ انعكاسها كان كافياً كي يُلهبني. أجل، هو أنا، أنا أتعرّف إلى نفسي أحسن، أتعرّف طريقة عيشي العجول والحماسية، وهذه الرّغبةَ المتطرّفة في الاقتراب منه، وهذه النّشوة المفتتنة التي لا تقنع بالفكر. أنا الشاب المتوحّش الأخرق الجاهل بقوته، وقد فتحتُ ثانية، في هذا الكائن النّاضِبِ، المنبعَ الثّرّ للإبداعِ وأوقدتُ أيضاً في روحه مشعلَ الإيروس الذي كان قد أهمله بسببٍ من نصَبِه. كنت أرى أمامي، مُندهشاً، ما أُمثّله بالنّسبة إليه، أنا الفتى الخجول الذي أَحَبّ البروفيسورُ حماستَه العجولَ وكأنّها مُفاجأة ربّانية عاشها في شيخوخته. وقد انتبهت أيضاً، مُرتعشاً، إلى المقاومة الخارقة التي من المفروض أن تكون إرادتُه قد تجشّمتها بسببي أنا، لأنّه لم يكن يُريد أن يتلقّى منّي أنا تحديداً، لما يحمله لي من حبّ طاهر، استهزاءً ولا صدّاً فظّاً ولا رعشة استياء. لم يكن يُريد أن يهبَ حواسَّه، من أجل لعبة فاسقة، هذه الخدمةَ الأخيرةَ التي يضعها ملك يمينه قَدَرٌ عدوٌّ. لهذا كان يُواجه جهودي بمُقاومة قوية، ويرمي، في نفس الأوان، شعوري الطّافح بقذفةٍ مُفاجئة من السّخرية

المُثلّجة. لذلك كانت سيول صداقته تُلجمُ فجأة بقسوة مُدّعاة، ويكبح الرّقة الحانية لكفّه. فقط بسببي أنا كان يلتجئ إلى هذه الحركات غير الحبية الهادفة إلى التخفيف من غُلواءِ حماستي وإلى حمايته هو نفسه، والتي كانت تُعكّر روحي أسابيع. عندئذٍ فهمت بوضوح مرعب طبيعة التّشوش الكامل الذي ساد تلك اللّيلة عندما صعد السُّلّم ذا الصرير، وقد تسرنمت حواسُّه، كي يهرب بعد ذلك من نفسه وليُنقذ صداقتنا بتلفّظه لتلك الكلمة العدوانية. وقد فهمت -مُرتعشاً ومتأثّراً ومضطرباً كما لو كنت أعاني من حُمّى، أذوبُ شفَقَةً- كم عانى بسببي وأيَّ بطولة كان قد تلبّسها كي يُروّض نفسه.

هذا الصّوت وسط الظّلمة، هذا الصّوت وسط العتمة، آه! كم كنت أشعر به يتغلغل عميقاً في أعمق أعماق صدري! كانت تُصدي فيه نبرة لم يسبق لي قطّ أن سمعتها من قبل، ولم أسمعها بعد ذلك أبداً؛ نبرة قادمة من أعماقٍ لا تُدرَك في العادة. لم يكن بإمكان كائن بشريّ أن يتحدّث إلى كائن بشريّ آخر بهذه الطّريقة سوى مرّة واحدة في حياته، كي يصمت بعد ذلك إلى الأبد، كما يتمّ التّعبير عن ذلك في أسطورة البجعة التي لا تستطيع إلّا في لحظة احتضارها، ولمرّة وحيدة، أن ترفع صوتها الأجشّ إلى مستوى الإنشاد. كنت أستقبل فيّ هذا الصّوت الذي يعلو ساخناً ومُشتعلاً ومقتحماً، وكنت أرتعش متألِّماً مثل امرأة تستقبل رجلاً في كيانها.

صمت هذا الصّوت فجأة فلم يعد سائداً بيننا سوى الظّلام. كنت أعلم أنّه قريب منّي. ما كان عليّ إلّا أن أُحرّك كفّي، وبمدّها كان بإمكاني لمسه، فأعربت عن رغبة قوية في أن أواسيه في معاناته.

لكنّه آتى حركة فانبعث الضّوء دفعة واحدة. نهض من الأريكة وجهٌ مُتعب وشائخ ومضطرب، فأقبل نحوي رجل شيخ مُنهك. «وداعاً يا رولاند. لا كلمةَ بعد الآن نتبادلها فيما بيننا. أحسنت صُنعاً بمجيئك... ومن صالحنا نحن الاثنين أن تنصرف... وداعاً. ودَعْنِي.. أُقبّلك في لحظة الوداع هذه».

كنت أمشي نحوه مُترنّحاً كأنّني محمول بقوة سحرية. لمعَ عندئذٍ في عينيه هذا الوضوح الملتبس الذي كان يبدو في العادة كأنّه محجوب بدخان مُضطرب، فصعد في عينيه فجأة لهبٌ حارق. جذبني إليه وضغط بشفتيه على شفتَي بنهم، في حركة عصبية، وبضرب من الارتعاش المرتعد ضمّ جسدي إليه.

كانت قبلة لم يسبق لي أن تلقّيت لها مثيلاً من امرأة، قبلة متوحّشة وبلا أمل كأنّها صرخة الموت. عاداني ارتعاده المتشنّج، فارتعشت وأنا فريسة لإحساس مزدوج، غريب ورهيب في آن. استسلمت روحي له، غير أنّني كنت مع ذلك مرعوباً في أعماقي من النّفور الذي شعر به جسدي من أن أوجد هكذا مضغوطاً إلى جسد رجل، مشمولاً بالتباس

للمشاعر مقلقٍ جعل. هذه الثّانية التي كنت أعيشها دون أن تكون لي فيها رغبة، مدهشةً في طولها.

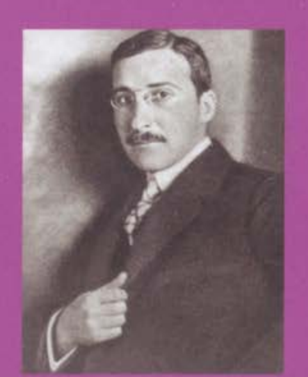
عندئذٍ تركني، فحدثت فيّ هزّة شبيهة بما يحصل لجسد ارتخت مفاصله فجأة. انثنى بصعوبة وتهالك في أريكته مُديراً لي ظهره. ظلّ جسده الثّابت مُستقيماً دقائق، لا يرى أمامه سوى الفراغ. لكن شيئاً فشيئاً أضحى رأسه أثقَلَ، فانحنى قليلاً مُستسلماً للتّعب والإنهاك، فسقطت جبهته المنحنية بقوّة على الطّاولة، مُصدرة صوتاً خافتاً وحادّاً، تماماً كما يحصل لوزن ثقيل تمايل طويلاً في وضعية غير مستقرّة وسقط فجأة في الأعماق.

اجتاحتني شفقة لا حدّ لها. اقتربت منه دون أن تكون لي رغبة في ذلك، لكنّ ظهره المقوّس استقام فجأة من جديد، مع ارتعاشة، فأطلق، وهو يلتفت إليّ، بصوت أجشّ مكتوم، ما يُشبه أنيناً مُتوعّداً، عبر أصابع كفّه المتشنّجة والموضوعة على وجهه كأنّها قناع: «انصرف. انصرف... لا لا تقترب. من أجل الرّب... ومن أجل الحبّ الذي يجمع بيننا. انصرف الآن، انصرف!».

فهمت وتقهقرت مُرتعداً، وكالهارب، غادرت هذا المكان المحبوب.

لم أرَه بعد ذلك قط، ولم أتلقَّ منه رسالة أو خبراً. لم يصدر كتابه، وقد نُسي اسمه وما عاد أحد يتذكّره، غيري أنا.

لكنّني اليوم أيضاً، مثل الطّفل غير الواثق من نفسه لذلك الزّمن، أشعر أكثر فأكثر أنّني لست مديناً بشيء لأحد: لا للأب والأمّ قبله ولا للزّوجة والأطفال بعده - وأنّني لم أُحبّ أحداً أكثر ممّا أحببته.


(1942 - 1881)

ستيفان زفايغ، أديب ومسرحيّ وصحافيّ وكاتب سيَر نمساويّ، يُعدّ من أهم كتّاب زمانه، برَع في كتابة كلّ الأنواع الأدبية. نحن مدينون له بمُنجز ضخم يتألّف من عشرات الكتب التي بوّأته مجده الرّوائي. إنّه أحد الكتّاب النّادرين الذين جُلّت مكانتهم قيدَ حياتهم، واستمرّت كذلك إلى وقتنا الرّاهن، بفضل طريقته الفريدة في وصف عمق نفسية الشّخصيات وكشف النّقاب عن الطبيعة البشرية اعتماداً على كلمات قليلة مُنتقاة.



شكّلت رواية **التباس الأحاسيس** أحد نجاحات زفايغ الكبرى، ويرجع السّبب في ذلك، جزئياً، إلى الموضوع الذي تعالجه ضمن مجتمع محافظ لا تزال فيه العلاقات الشّخصية والحميمة تابوهات لا يُسمح بالحديث عنها، في حين يُفسحُ المجال لعلاقات «الواجهة».

رولاند، طالب غير عابئ بدراسته يلتقي بأستاذٍ للأدب، وتنشأ بينهما علاقة قوية يخضع فيها الطالب لأستاذه خضوعاً كاملاً، سرعان ما تتّسم بنوع من الالتباس حيث يختلط فيها الشّغف بالإعجاب وبالتّبعية. وبالموزاة يُقيم رولاند علاقة صداقة مع الزوجة، وهكذا يتقرّب من الزّوجين معاً فيندمج في حياتهما اليومية ويتبيّن له أنّ سرّاً ما يفصل بينهما.

عبر هذا المسار الرّوائيّ، يشعر القارئ بقوة، وسط أجواء من التّشويق والتّوتّر، بالتباس الأحاسيس الذي يُهيمن على شخصياتِ علاقةِ الحبّ الثّلاثية الغريبة هذه، حتّى أنّ سيغموند فرويد نفسه نوّه بالذكاء والسّداد اللّذين نقل بهما الكاتبُ الشّغف والضّيق والخجل والشّعور بالذّنب الذي يشوب هذه الأحاسيس النّاشئة عن الغموض وعمّا هو ممنوع.

لوحة الغلاف للفنان جورج سورا


المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com


ISBN 978-9953-68-864-0
9 789953 688640